مازال عطرك يغمرني

سلمى حسب الله



اسم الكتاب: مازال عطرك يغمرني
التأليف: سلمى حسب الله
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 232 صفحة
عدد الملازم: 14.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14 × 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 25276 / 2016
الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 593 - 3

1438 هـ
2017م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com
Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

مازال عطرك يغمرني

سلمى حسب الله

دار البشير
للثقافة والعلوم

لو دخل كل منا قلب الآخر أشفق عليه

(د. مصطفى محمود)

الفصل الأول

هــي

دبي، 2008

كان قلبي ينبض بإيقاع أسرع مما كنت أحتمل حين اعتليت خشبة المسرح في قلب المدينة الصاخبة الحافلة. ارتعشت خوفًا، وتسارعت الأفكار والتساؤلات في رأسي مثلما يحدث في كل حفل تحييه فرقتنا. هل سننجح؟ هل سنُمتع كل فرد أتى إلى حفلنا يأمل في بضع لحظات من البهجة والأُنس؟ حاولت جاهدة أن أدقق في وجوه الحضور، ولكن حالت الأنوار الباهرة دون ذلك، فلم أرَ منهم سوى خيالات وظلال لم تمنعني من شعوري باستجدائهم السعادة.

جلستُ على عرشي، أو على آلة البيانو كما يطلقون عليه، وأخذت أتأمل اللافتات التي تحمل صور أفراد فرقتنا من حولي، وعلى رأسهم قائدنا الفنان (حسن البحيري).. وارتعدت عندما وقعت عيناي على العدسات العديدة المحيطة بنا من قنوات محلية وعالمية، جميعها مرتكزة علينا، وكانت الشاشات المكبرة تظهرنا من كل زاوية في أرجاء



قاعة الشيخ راشد في مركز دبي التجاري العالمي، ثم علت التساؤلات مرة أخرى في رأسي: ماذا لو أخفق مهندس الصوت هذه المرة؟ وماذا لو نسيت اللحن؟ وماذا لوانقطعت الكهرباء؟ وماذا لو شلت يداي؟ أسئلة عديدة ظلت وساوس الشيطان تسمم بها أفكاري حتى أخمَدتْها هتافات الجماهير وتصفيقهم الحاد عندما أشرق علينا فناننا حسن البحيري، ثم أعطى إشارته السحرية لنبدأ بأول ألحانه.. مقطوعة تحمل اسم (الحلم)، وهدأت القاعة وهدأت معها أنفاسي، وأخذني اللحن بعيدًا عن واقعي.. بعيدًا عن كل ما هو ملموس. وجدت أصابعي تداعب مفاتيح البيانو، ثم رمقني المايسترو بنظرة امتنان فثبتتني. عزفت اللحن بكل جوارحي.. ولكن سرعان ما نشب نزاع آخر بداخلي، كنت أحاول جاهدة ألا تُستدعى ذكرياتي مع انسياب النغمات. فلا أريد أن أتذكر أين كنت، وكيف انتهت الأمور، ولكن كانت نغمات (الحلم) أقوى من كل عزائمي. سرعان ما نقلتني إلى مكان آخر وزمان بعيد وحفل أقل عددًا وصيتًا، ولكنه ما زال محفورًا في وجداني.

القاهرة، 1998

منذ عقد من الزمان أحييت حفلًا لدارٍ صغيرةٍ للمسنين في وسط البلد بالقاهرة، كم كنت أسعد كلما رسمت بسمة على وجوه يائسة ومُتعبة، ترك الزمن آثاره عليها شكلًا وموضوعًا؛ ولذلك كنت أحرص



على الحضور كلما دعيت لإحياء حفل لهم. وكان جمهوري البسيط يَضُم النزلاء المسنين وذويهم والعاملين في الدار وعددًا قليلًا من محبي الخير بصفة عامة. وكنت بالطبع أهاب المواجهة كحالي دائمًا، على الرغم من تواضع الحفلة. عزفت حينها مقطوعة (الحلم). وبدأت الأحلام تتراءى في عيون الحضور، وأخذت أتساءل في نفسي كيف يقع هذا اللحن العبقري في قلب كلٍّ منهم؟ ترى هل يأخذهم بعيدًا في أغوار ماضيهم السحيق؟ فلهذه المقطوعة سحر خاص يأخذك رغمًا عنك ويجتاز بك السنين والمسافات، فإذا كان قد تقدم بك العمر حتمًا سيعيدك إلى الوراء كما فعل بي الآن، أما إذا كان قلبك لا يزال يتفتح، فسيأخذك اللحن إلى أحلام المستقبل كما فعل بي ليلتها، فشعرت وكأن هناك من يأخذني إلى عالمه ويحتويني، وأحسست حضنه الدافئ يغمرني، وأغمضت عينيَّ واسترخيت مع أنغام الموسيقى، وحين فتحتهما وجدته واقفًا مستندًا إلى عمود في آخر القاعة.. يكاد يحوطني بعينيه، يا إلهي! أهو واقع أم أنني استرسلت في أحلامي؟ أغمضت عينيَّ وفتحتهما مرة أخرى لأجده لا يزال واقفًا، وابتسامته تضيء وجهه بل القاعة بأكملها. إذًا.. فهذا ليس حلمًا يراودني، إنه أحد الحضور. تُرى ما الذي أتى به إلى هذا الحفل؟! هل له صلة بأي نزيل؟ يا حبذا لو كان من أهل الخير. أسئلة كثيرة حاصرتني حول إنسان كنت أراه لأول



مرة في حياتي، ولا أعلم سر انجذابي الشديد إليه. لم أفلح في إخماد تلك الأسئلة غير المبررة، مما أثار دهشتي من نفسي.

ثم انتهيت من العزف وصفق لي الجمع، وتقدمَت نحوي إحدى العاملات في الدار تهنئني على أدائي الرائع، وبعدها أعدتُ النظر إلى العمود آخر القاعة. يا حسرتى، وجدته خاليًا تمامًا.

شكرني مدير الدار وبعض المسئولين وذوو النزلاء المسنين، بعد برهة وقفتُ مع بعض العاملات بالدار وبدأنا الحديث عن النزلاء وأحوالهم، وقد حزنت كثيرًا عندما علمت منهن أن عددًا ليس بالقليل من المسنين يعانون من جفاء أولادهم وإهمالهم المستمر لهم، وفجأة دنت مني إحدى العاملات قائلة:

- انظري، يقترب منا أحدُ من تحدثنا عنهم الآن. مع الأسف يتمنى موت أبيه ليرثه.

وجدته أمامي. هو الذي راودني في أحلامي ليلتها، هل يعقل أن يكون بهذا السوء؛ أن ينتظر موت أقرب الناس إليه من أجل المال؟! أيًّا كانت هذه الثروة أتقارن بحضن أبيه؟! ثم تذكرت وجه أبي، رحمة الله عليه، وكم اشتاقت إليه نفسي. استيقظت علي صوت الرجل وهو يقول لي:

- عزفكِ كان رائعًا يا آنسة. إنك حقًّا موهوبة.



قلت، وأنا أهمُّ بالانصراف:

- أشكرك. لابد أن أرحل الآن.

تركته وابتعدت. لأول مرة يخونني حدسي، إطلالته ونبرات صوته الرخيم لا تعكس أبدًا الشر والجشع المتوغِّلين بداخله. لابد أن أتوقف عن التفكير فيه، على أَيَّة حال فأنا لم أره إلا منذ ساعة واحدة، فمن السهل أن أطوي صفحته التي لم تُفتح بعد.

دبي، 2008

انتهينا من عزف مقطوعة (الحلم)، فعدت في لحظة إلى واقعي، وعاد التصفيق مرة أخرى، وأخذنا نعزف لحنًا تلو الآخر، وأداء فرقتنا بقيادة (حسن البحيري) يبهر الحاضرين بالقاعة، بل مدينة دبي والشرق الأوسط كله، وانقضت الأمسية بفضل الله بنجاح منقطع النظير.

ما إن وصلت إلى حجرتي بالفندق الفاخر، حتى رميت نفسي على فراشي، فقد كنتُ أشعر بإعياءٍ شديدٍ من فرط الجهد المبذول أيام التدريب والقلق الذي استحوذ عليَّ في الأيام الأخيرة التي سبقت الحفل مباشرة. جذبت صورة حمزة من أعلى المنضدة المجاورة، وأخذت أتأمل براءته الناطقة من الصورة. باقٍ من الزمن يوم يا حبيبي لأملأ عينيَّ منك. وداهمني النوم والصورة بين أحضاني، ولكن سرعان ما أفاقني دق جرس الهاتف. انتزعت السماعة بضيق وتأفف، فإذ



بصوت هاني زميلي، عازف الجيتاربالفرقة، يقول لي بعتاب:

- أين أنتِ يا نورا؟ لِمَ لم تنضمي إلينا في قاعة الاستقبال في الفندق؟ فكلنا مجتمعون كي نحتفل بنجاحنا في الحفل.

قلت، وقد بدا على صوتي النعاس والتعب:

- لا أقوى على النزول يا هاني. أشعر بإعياء شديد، فلنتقابل غدًا.

قال بصوت شابه شيء من الإحباط:

- لا أعتقد أن هذا ممكنٌ. فغدًا سيكون آخر يوم لنا في دبي، ويُفضل كل منا أن يقضيه منفصلًا؛ حتى يقضي مشترياته، عن نفسي يجب أن أحضر هدية لابنتي سارة، وإلَّا فلن تأذن لي بدخول البيت.

ضحكتُ قائلة:

- بارك الله لك فيها. على العموم، سوف نستأنف لمَّتنا ومقابلاتنا في القاهرة. على الأقل أثناء تدريباتنا. تصبح على خير.

قال هاني، وكأنه تذكر شيئًا:

- نسيت أن أخبركِ عن إيهاب شكري، لقد حضر الحفل وظل يسأل عنك كثيرًا.

ساءني ذكر إيهاب شكري، فأنهيت المكالمة سريعًا؛ حتى لا أعلم المزيد عن أخباره، فقد أصبح في الآونة الأخيرة يطاردني ليل نهار. ليته



يعلم أن قلبي موصَد بأقفال يئن من حمل مفاتيحها الفرسان.

أغمضت عينيَّ؛ لأستسلم للنوم، ولكن أبى الهاتف إلا أن يدق، فأمسكت السماعة مجددًا، وإذا بصوت إيهاب هذه المرة يخترق سمعي، وهو يقول بلهفة:

- أخيرًا وجدتك! كنت متلهفًا على تهنئتك على أدائك الرائع.

قلت بفتور:

- أشكرك يا أستاذ إيهاب.

فاستطرد قائلًا بحماس:

- لا أظن أنك ستصدينني إذا طلبت منك أن تلبي دعوتي على العشاء غدًا.

قلت معتذرة:

- أنت تعلم أن غدًا آخر يوم لنا، وعندي..

قاطعني قائلًا:

- لن أقبل أعذارًا.. نورا، يجري بنا العمر كلمح البصر، فلم لا نستمتع به؟!

قلت بتردد:

- لكن..



قال مقاطعًا:

- مستحيل أن ترفضي مقابلتي، وقد قطعت كل هذه المسافة من القاهرة إلى دبي من أجلكِ، سأنتظرك غدًا أمام الفندق في تمام الثامنة مساء.

هذا هوإيهاب شكري. لا يقبل الهزيمة، رجل أعمال ماهر، معروف بصبره وجلده، يدرك كيف ينال من خصمه، وله مهارات خاصة تمكنه من الوصول إلى مآربه أيًّا كانت، فقد أنهى حديثه فارضًا رغبته عليَّ بقبولي دعوته للعشاء، رغمًا عني!



هـــو

سان فرانسيسكو، 2008

كنت أحتفل مع شريكي ومجموعة من عملائنا بتسوية خلافنا، والوصول إلى اتفاق بخصوص تسويق منتجهم، وكنا نتناول العشاء في مطعم (ليفتي أودول) بمدينة سان فرنسيسكو.. كنت سعيدًا بهذه الخطوة، أو هكذا كنت أظن؛ لأن السعادة - منذ أن وطِئت قدماي

خارج أرض بلادي - أصبحت لديَّ لحظات عابرة لارتباطها عندي بكل ما هو لحظي، ولكن في أعماقي كنت أشعر بخواء دائم. وكأني سماء تتوق إلى شمسها في عز الليل، فلم يمحُ تفوقي المذهل في عملي والأرباح المتضاعفة التي انهالت عليّ في بضع سنين، تلك الظلمة التي سكنت نفسي.

وفجأة تسلل إلى سمعي لحن أعرفه جيدًا، لحنٌ شرقيٌ بمذاقٍ عالمي، يتخللك مهما كان جنسك أو عرقك أو دينك، ويأخذك بعيدًا.. بعيدًا عن حاضرك، على أرضٍ غير الأرض، وزمانٍ غير الزمان، بدون إذن أو رخصة أو تأشيرة دخول.

القاهرة، 1998

كنت أهروِل لحضور حفل بدار للمسنين في وسط البلد، وكان عمي مكرم يشغل بالي حينها، كان صديق والدي - رحمة الله عليه - وكان من أصحاب الأملاك، وذا صيت وثروة، ولكن لم يدم ذلك الحال طويلًا، فخسر - في لحظة - كل شيءٍ في البورصة، ولم يتحمل المسكين هذه الضربة الموجعة، فقصمت ظهره، وبدأت الأمراض النفسية والجسدية تلاحقه، وزاد الأمر سوءًا أن تخلت عنه زوجته وابنه الوحيد، وتركاه فريسة لأنياب الوحدة المفترسة، فازداد إشفاقي عليه، وعندما تعسَّرت معه الحياة؛ قررتُ نقله إلى هذه الدار، وأصبحت أتردد



عليه بين حينٍ وآخر، ولكن مع الوقت ازدادت حالته النفسية سوءًا، إلى حد أنه أحيانًا ما كان يختلط عليه الأمر، فيظن أنه لايزال يملك الملايين، وأن ابنه الوحيد يتمنى موته ليرثه، وفي أحيان أخرى يظن أني أنا ابنه؛ فيصب عليَّ وابلًا من سخطه وتوبيخه، كنت أحتمل، وأحيانًا أخرى أبتعد، ولكن عندما دُعيت إلى هذا الحفل، قررت أن أحضر، وألقي على عمي مكرم نظرة لأطمئن عليه، فهو على أيَّة حال لا يُلام على مرضه وتصوراته المجنونة. وعند دخولي قاعة الحفل الصغيرة بالدار.. كان العرض قد بدأ بالفعل، فوقفت في آخر القاعة أستند إلى عمود؛ لأنه لم يكن هناك مكان خال، وأخذت أنصت إلى أولى نغمات لحنها الساحر، رمقتُ العازفة بنظرة طويلة، لا أكاد أصدق أنها تعزف على أوتار أحاسيسي، كيف لها أن تخترق كياني دون سابق معرفة، ودون أي استئذان! فقد أخذني لحنها إلى عالم آخر أذوب فيه وأحترق، وتوقف عندي الزمان والمكان، وكأني خرجت من عالم المادة إلى عالم أكبر من استيعابي، وعندما انتهت من العزف، ذهبت إلى صديق والدي للاطمئنان، وبعدها صرت أبحث عن العازفة.. أين هي؟ لا أدري سر انجذابي إليها، وسبب بحثي عنها، وما سأقوله لها إن وجدتها، وأخيرًا لمحتها بين بعض العاملات بالدار، تتجاذب معهن أطراف الحديث، أخذت أتمعن في وجهها الملائكي الرقيق وابتسامتها الدافئة، واتجهت

إليها فورًا، وعندما اقتربت منها، أسكرني عطرها وكاد أن ينسني الكلام، وترددت للحظة ولكن خفت ضياع الفرصة فقلت بحماس:

- عزفكِ كان رائعًا يا آنسة. إنك حقًّا موهوبة.

أجابت ببرود عجيب، وهي على عجلة من أمرها:

- أشكرك. لابد أن أرحل الآن.

أعادني جفاؤها إلى أرض الواقع، سخرتُ من نفسي، فقد تصورت نفسي بطلًا في رواية مدتها ثوان معدودة، لابد أن أعود أدراجي، ملعون هذا اللحن الذي رفعني إلى السماء، ثم تركني لأرتطم بالأرض من ارتفاع غير مسبوق.

وانتهت الأمسية، ولكن روايتنا لم تنتهِ كما كنت أظن..

في اليوم التالي كنت أباشر عملي في صرح عز الدين للدعاية والإعلان بالمهندسين، أو صرح العائلة كما كنا نطلق عليه، دخلَتْ عليَّ سكرتيرتي رباب؛ لتبلغني عن وجود اثنتين من فرقة (الصحبة) جاءتا لمقابلتي حسب الموعد المحدد لهما، فأذنت لهما بالدخول، دق هاتف مكتبي حينها، التقطتُ السماعة على الفور؛ لأسمع صوت عمي يقول بحزم المدير:

- أين سكريبت النزهة يا شريف؟ لقد أخَّرته كثيرًا، هذا إهمال جسيم لا أقبله!



قلت، وقد أزعجني نبرة العتاب والحدة في صوته بعض الشيء:

- سأسلمه لك باكرًا فور الانتهاء منه.

- لن أسمح لك بعد الآن بمزيد من التأخير، سأنتظر تسليمه غدًا الساعة التاسعة صباحًا، وقد أعذر من أنذر.

ازداد انزعاجي من نبرته الحادة، وحينها دخلت الفتاتان بهدوء إلى مكتبي، وأخذتا مكانيهما، أما أنا فأدرت نفسي على كرسيَّ الفاخر، وأعطيتهما ظهري؛ لأكمل حديثي مع عمي دون أن تلاحظا انفعالي الذي بدأ يظهر على وجهي، فأصبح لا يفصلني عن منظر بانوراما بديع للقاهرة سوى حاجز زجاجي يقع خلف مكتبي، وإذ بعمي عبر الهاتف يغير لهجته معي قائلًا:

- على فكرة، زوجة عمك تحبك، وتدعوك إلى العشاء الليلة.

قلت له بلؤم؛ وأنا أدرك جيدًا أني سأجبره على تدارك موقفه العنجهي الذي اتخذه معي في أول المكالمة:

- وأنا أحبها أيضًا ولكن ما باليد حيلة، أعتذر لها عن الحضور، عندي تسليم سكريبت لا أستطيع تأخيره - ولو ساعة - ويجب أن أعمل فيه طوال الليل.

- لا بأس.. لا بأس يا شريف، يمكن أن تسلمه بعد غد، ولكن لابد أن تأتي الليلة، وإلا غضبَت زوجة عمك.



كنت أعلم أن زوجة عمي هي الآمر الناهي في بيت عمي، بل والرأس المدبر، وكان من ضمن مخططاتها زواجي من ابنتها نانسي التي لم يتجاوز شعوري نحوها الأخوة التي كبرنا عليها، ومع ذلك فكرتُ في أن أتزوجها مرارًا، قد تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لاسترجاع ما فقدته مع الأيام.

أنهيت المكالمة، وأدرت نفسي مرة أخرى؛ لأبدأ حديثي مع فتاتَيْ فرقة (الصحبة)، ولدهشتي وقعت عيناي عليها، عازفة الأمس بشحمها ولحمها تجلس أمامي، ووجدت نفس الدهشة والحيرة تطلان من عينيها الجميلتين، ثم قالت زميلتها:

- أستاذ شريف، أقدم لك نفسي.. أنا منال محمود وزميلتي نورا حامد من أعضاء فرقة (الصحبة).

قلت، ولم أرفع عيني عن نورا:

- أهلًا وسهلًا بكما.

قالت منال، وكأنها تردد ما حفظته عن ظهر قلب:

- أتينا وكلنا أمل أن تتولى شركتكم الدعاية الخاصة بالحفل الذي سنقيمه في غضون شهرين في مقابل قيمة التذاكر المباعة.

قاطعتها قائلًا:



- وما العدد الذي تتوقعونه لحضور حفلكم هذا؟

لم تنبس نورا ببنت شفة، أما منال زميلتها فاستطردت قائلة:

- القاعة تستوعب ربعمائة فردٍ.

قلت بتهكم:

- من قال إني أريد تأجير القاعة؟ ألا تعلمين أنه من الممكن ألا يتجاوز عدد الحاضرين عشرين نفرًا؟ أين دراسة جدواكم؟

ارتبكت منال بعض الشيء، ثم قالت:

- سأرسل إليك المعلومات المطلوبة على البريد الإلكتروني.

اتضح لي جليًّا قلة حيلتهما، وضحالة خبرتهما، ولكن وجود نورا جعلني أتخذ معهما سلوكًا مغايرًا لطبعي في مثل هذه الظروف، فإذ بي أصبر عليهما، وأشرح لهما قواعد العمل، وفي النهاية قلت لهما مبتسمًا:

- لا بد أن تضعوا في الاعتبار أنني لن أتخذ أي قرار إلا بعد وصول رسالتكم وتقييمها، وتشمل خطتكم بالنسبة للحفل- كما اتفقنا - بدايةً توقعاتكم لعدد الحضور وقيمة التذكرة والتكلفة المبدئية والعائد المادي لنا ولكم، كما يقول والدي - رحمة الله عليه - (الشرط نور).

وقتها نظرت نورا بتعجب، ثم قالت:

- هل تُوفيَ والدك؟ هل مات حقًّا؟

قلت، وأنا أكثر منها دهشة وحيرة من سؤالها:

- لا أعتقد أننا نلقب الأحياء بلقب (رحمة الله عليه)! مع أن الرحمة تجوز على الأحياء والأموات على حد سواء.

احمرَّت وجنتاها من الخجل، وأحسست وقتها بوقاحتي، كيف سنح لي أن أحرجها بهذا الشكل؟! فقلت مستطردًا:

- لقد توفي أبي وأنا في المرحلة الابتدائية، هل رثيتِ لحالي؟

لن أنسى تعبيرات وجهها البريء وهي تزداد خجلًا، سيظل محفورًا بين جفوني.



الفصل الثاني

هـــي

دبي، 2008

حضر إيهاب شكري في تمام الساعة الثامنة مساءً، أخذت مكاني بجانبه في المقعد الأمامي بسيارته الفخمة، ثم قاد بنا إلى مطعم بفندق (أتلانتس النخلة). كان قد فُتح للتو في دبي، وقد بهرتني إطلالته على أحواض مائية زجاجية تكشف قاع البحر، أما فخامة الديكور والأثاث والتجهيزات فكانت تفوق الخيال، وبعد أن تناولنا أشهي المأكولات، رمقني إيهاب بنظرة العاشق، وقال:

- نورا، بالله عليك.. كفاك بعدًا وجفاءً.

لم أنطق بكلمة، ونظرت في شرود، فقد سئمت تودده المستمر، ولكن يبدو أنه قرر هذه المرة أن يكون أكثر صراحةً ووضوحًا، فأمسك يدي قائلًا:

- سأقولها لك بكل وضوح، أرغب في الزواج منك، ما عدت أستطيع العيش بدونك.



سحبت يدي المرتعشة من بين يديه على الفور، وأنا أقول:

- أستاذ إيهاب..

قاطعني قائلًا:

- ما الداعي للألقاب بيننا يا نورا؟!

تداركت قائلة:

- إيهاب..

- ما كنت أظن إن اسمي به كل هذا النغم..

فقلت؛ لأقطع سيلَ غزله:

- إنك مُطلعٌ على ظروفي، ليس بحياتي سوى ابني وفني، أخشى أن أصدم ابني إذا تزوجت، فلن أغفر لنفسي حينها أبدًا.

قال بابتسامة حانية:

- أعدك أن أكون أبًا لابنك، وسأبذل ما في وسعي لإسعاده، ثم إنني لا يمكن أن أحرمك من فنك، أنسيتِ أني من أشد معجبيك؟!

ذرفت عيناي، وأنا أتذكر حال ابني، وقلت بأسًى:

- ولكن ابني ليس كأي طفل، إنه مريض بمرض الثلاثيميا (أنيميا البحر الأبيض المتوسط)، ينقل دمه كل شهر، ويحتاج إلى رعاية خاصة.

قاطعني.. دون تردد:



- سأكون عونًا لك في رعايته، وسأعرضه على أحسن الأطباء في أوروبا وأمريكا، فوالله لن أخذلك أبدًا؛ إذا قبلتِني زوجًا.

لا أستطيع أن أنكر أن عرضه كان مغريًا إلى أبعد الحدود، على الرغم من أن قلبي لم ينبض له كما كان ينبض لغيره في الماضي ! فالماثل أمامي الآن رجل عاشق محب، قوي بنفوذه وثروته، قادر على الوفاء بعهوده السخية، وفوق هذا سيخلصني من تسلط أمي التي كانت تشعرني بضغط نفسي كبير؛ لطبعها الحاد، ورؤيتها المتدنية للمطلقة.

ولكن، هل أقبل الخوض في ارتباط جديد بعد أن أخفقت في الاستمرار في زواجي الأول؟ ومِمَّن؟ مِن الذي أحببته بكل كياني؟ هل لي أن أنسى جرحي الذي لم يلتئم بعد؟! هل يَصْلُح زواجي بإيهاب وأنا بقايا امرأة؟ بل شمعة احترقت لغيره، ولم يبقَ منها سوى فتيلٍ! وهل هذا إنصافٌ له؟ ثم ماذا لو اختلف الأمر بعد الزواج؟ ماذا لو وجدت إيهابًا آخر غير الذي يجلس أمامي الآن، أكاد ألا أعرفه كما حدث لي في الماضي؟ إنها حقًّا مجازفة، يا لها من حيرة!

ولم أجد بدًّا من أن أقول له:

- أحتاج إلى مزيد من الوقت؛ لأحسم قراري.





هــو

سان فرانسيسكو، 2008

استيقظت مبكرًا يوم إجازتي الأسبوعية على غير عادتي، لا أدري ما الذي أثار قلقي الليلة الماضية، أرهقني نومي المتقطع، وتساءلت: هل ما أعانيه من سهد وأرق وتقلب مزاجي غير مفهوم؛ كان من أثر أنغام موسيقى (الحلم) التي ملأت سمعي الليلة الماضية على حين غِرة؟!ما إن بدأت خيوط الشمس الذهبية تتسلل عبر ستائر غرفتي؛ حتى نهضت واتجهت إلى مطبخي المفتوح على غرفة المعيشة لإعداد القهوة، أراحني بعض الشيء استنشاق رائحتها الزكية؛ لعلي أفيق، ثم اتجهت إلى نافذتي الزجاجية أنظر إلى الشارع، وأنا أرتشف الفنجان، نبهني رؤية جسر البوابة الذهبية من بُعدٍ، ومشهد المباني المتباينة الارتفاع على الطرق المنحدرة إلى أني نبتة اجتثت من أرضها، ورُمِيت في تربة غريبة. كم آلمني الخروج من مصر بهذه الطريقة، تائه، خائف، كالفأر المذعور، أتخلى عن كل شيء أحببته من أعماقي رغمًا عني، فلم أتزود في سفري إلا بذكريات تداهمني دون استئذان، ربما كان يجب عليَّ الصمود، بل المواجهة لا الهروب، ولكن المعركة ازدادت ضراوة وحدَّة، وقد خارت أمامها قواي.



تذكرتُ والدتي وهي تقص عليَّ نبأ المعركة التي دقت أبواقها منذ صغري، مؤكدة لي أن الجزء الأكبر من شركة عز الدين للدعاية كان ملكًا لوالدي، كان يصعب عليها تصديق مزاعم عمي "جاسر" بأن والدي قد باع له نصيبه من الشركة قبل وفاته بشهور دون أن يبوح لها، وبعد وفاة أبي بدأت أمي بحثًا مكثفًا، فتشت في أوراق أبي ومستنداته، وسألنا الأَقارب والأصدقاء، الكل أنكر معرفته ببيع حصة أبي لعمي؛ حتى جاء عمي "عبد الواحد" خال أبي؛ ليؤكد هذه البيعة بزعمه أنه كان حاضرًا آنذاك، وأخرج عمي "جاسر" ما يؤكد صدقه بمستندات وأوراق رسمية لم تقنع أمي البتة، فكانت مقتنعة تمام الاقتناع بأن عمي زوَّر في الأوراق الرسمية للشركة ليؤكد زعمه، وورَّط معه خال أبي، وماتت أمي، وماتت معها الحقيقة.

وعشت في كنف عمي ورعايته، حتى كبرت واخترت الانفصال عنه في المسكن، ولكني آثرت الاستمرار في العمل بشركته، ربما بسبب صوت أمي الذي ظل يطاردني بين حينٍ وآخر، يذكرني بحقوقي المنهوبة!

لا أريد أن أتذكر تفاصيل المعركة.. ولِمَ أتعذب بها وقد حُسمت، وأصبح بيني وبينها مسافات وأعوام؟ أغمضت عيني وأخذت أبحث عن صفحة أخرى في أرشيف ذكرياتي، ربما تعيد إليَّ هدوئي واتزاني،

ولكن كانت الجراح مطلة بوجهها الذميم من كل صفحة، ومع ذلك لم تخلُ حياتي من لحظات حلوة، ولكن قصيرة.

القاهرة، 1998

تذكرت يوم حفل فرقة (الصحبة) الذي تولينا الدعاية له، وتذكرت ما آل إليه من فشل ذريع، فجمهورهم لم يتحمل هذا النوع من العزف، فموسيقى (الجاز) لم يألفها المستمع المصري العادي، واختلفت صور اعتراض الجمهور، فمنهم من سب ولعن؛ احتجاجًا على هذا اللون من الألحان، ومنهم من طالب باسترجاع قيمة تذكرته، أما أكثرهم فقد تركوا القاعة مبكرين حتى لم يبقَ في نهاية العرض سوى أفراد لا يتعدَّوْن عدد أصابع اليد الواحدة. وبعد العرض، خرج أفراد الفرقة التي كانت تضم خمسة من شباب حديثي التخرج مطأطئي الرءوس، رثيت لحالهم، أعلم جيدًا كيف يأكل الإحباط تلك القلوب الصغيرة، لمحتُ نورا وهي تخرج من القاعة، مهرولة ناحية سيارتها الفيات الصغيرة التي أوقفتها في شارعٍ جانبيٍ، فاتجهت إليها مسرعًا، وعندما لمحتني قالت، وبريق الدمع في عينيها:

- أرجو أن تقبل اعتذاري يا أستاذ شريف، كنت أتمنى أن نرفع رأسك عاليًا، ونقدم عرضًا أحسن من ذلك.

قلت لها بابتسامة:



- كان العرض أكثر من رائع..

قالت بيأس، وهي لا تزال تبكي:

- يبدو أنك مجامل إلى أبعد الحدود!

ثم همت لتفتح باب سيارتها، فقلت بحماس:

- أعني كلامي حقًّا، المشكلة ليست في أدائكم، ولكن كانت في اختياركم لنوع الألحان، تصوري ماذا عساه أن يكون رد فعلي لو ذهبت إلى مطعم وطلبت من العامل طبق كشري، فقدم لي بوظة بدلًا منها! بالتأكيد سأنفعل وأتشاجر معه، ومع الإدارة، وسوف أترك المحل غاضبًا، بصرف النظر عن طعم البوظة المقدمة.

قالت بعبارات متقطعة من شدة البكاء:

- لا تحاول معي. لا شيء يخفف ما أشعر به من فشل.

قلت مستنكرًا:

- سيدتي، ماذا تعنين بكلمة فشل؟ أتعنين بالفشل الإخفاق في إنجاز شيءٍ ما؟ ولكني أرى أن الإنسان الناجح يعاني الإخفاق أكثر من الفاشل نفسه؛ لأن الفاشل ييأس بعد إخفاقه الأول، أما الناجح فيستمر ويعيد الكرَّة، وربما يفشل عددًا لا بأس به من المرات، ولكنك تجدين لديه دائمًا ما يكفي من الإصرار والعزيمة؛ لدراسة أسباب فشله



وتلافيها، وعندي يقين أنكم ستتداركون سبب فشلكم المرة القادمة.

قالت بعينين مملوءتين بالرجاء:

- هل تظن أن هناك مرة قادمة؟!

قلت مبتسمًا:

- هذا يقيني، ولكن بشرط أن تعزفي فيها مقطوعة (الحلم). أتعدينني بذلك؟

أطلت من عينيها الدامعتين نظرة امتنان اخترقتني وهي تهمس:

- أعدك.



الفصل الثالث

هــي

مطار دبي الدولي، 2008

كنا في المطار ننتظر الطائرة التي ستقلنا إلى القاهرة أمام البوابة رقم (24)، وكلنا في غاية الشوق والحنين؛ للوصول إلى مصرنا الحبيبة لرؤية أحبائنا وذوينا، وقد غمرتنا فرحة نجاح حفلنا بدبي، فكان من الطبيعي أن يتصدر كلامنا الحديث عن الحفل، ورد فعل الصحافة والإعلام، ثم لمحتُ المايسترو حسن البحيري يتمم على أفراد فرقتنا بعينيه كأبٍ يتمم على أولاده، وعندما لاحظ غياب "هاني" سأل مصطفى عازف التشيللو بقلق:

- مصطفي، أين هاني؟

قال مصطفى بهدوء:

- اطمئن يا مايسترو، كان معنا أثناء وزن أمتعتنا، ربما يكون في الكافيتريا، أو السوق الحرة، أو دورة المياه.

قال المايسترو بحزم:



- اذهب وابحث عنه، ستقلع طائرتنا في غضون نصف الساعة.

قال مصطفى:

- لا داعي لهذا القلق، حتمًا سيظهر، إنه ليس قاصرًا.

رمق المايسترو مصطفى بنظرة غاضبة، انتفض على إثرها من مقعده، قائلًا:

- لا بأس، سأبحث عنه.. لا تغضب..

ظهر حينها "هاني" ومعه دمية كبيرة جدًّا علي شكل بطة (تويتي)، فاقترب منه مصطفى قائلًا:

- أين كنت؟ لقد أفزعتنا يا رجل.

ثم أشار إلى الدمية التي كان يحملها "هاني"، وقال ضاحكًا:

- هل اتخذتها زوجًا جديدةً يا هاني؟ إنها حقًّا تناسبك كثيرًا.

قال هاني بضيق:

- أتظن أنك خفيف الظل؟

اقترب محمود عازف الكمان، قائلًا:

- أخشى أن تطير منك في الطائرة..

ثم قالت صديقتي "هايدي" عازفة القانون:



- هل حجزت لها تذكرة على متن طائرتنا؟

قال هاني بتهكم، وهو يضع الدمية (تويتي) على المقعد المقابل له:

- ما هذا الكابوس؟ جميع أعضاء الفرقة ثقيلو الظل!

ضحك الجميع، أما المايسترو فقال:

- ما الذي أخَّرك يا هاني؟

- بعد وزن أمتعتي، لم أجد الدمية (تويتي) معي، لقد نسيتها عند شباك موظف الجوازات، فكان لزامًا عليّ أن أعود لأسترجعها، أنت تعلم أن سارة ابنتي لن تأذن لي بدخول البيت بدونها.

فقال المايسترو، ضاحكًا:

- كن حذرًا، قد تعضك في أنفك بمنقارها.

ضحك الجميع، أما "هاني" فقال:

- خفيف الظل أنت يا مايسترو.

فقالت هايدي:

- أتستطيع أن تقول غير ذلك؟

تعالت الضحكات، أما أنا فأخذت أحدق عبر الحاجز الزجاجي في الطائرات الماثلة في الخارج، لاحظ المايسترو شرودي وعزوفي عن المشاركة في أحاديثهم ومزاحهم، فأشار إليَّ لأجلس في المقعد



المجاور له، ففعلت. كنت أشعر باحتياجي للبوح له بكل ما يؤرقني، فهو بالنسبة لي خير قدوة، ولمحة من أب أفتقده بشدة، قال لي باهتمام:

- ماذا بك يا نورا؟

لم أدرِ كيف أفاتحه بعرض إيهاب لي بالزواج، فأنا بحاجة ملحة لاستشارته، لاحظ المايسترو حيرتي وترددي، فأردف قائلًا:

- لا داعي للكلام إذا كنتِ لا ترغبين.

قلت مقاطعة:

- بالعكس، فأنا في حاجة ملحة إلى مشاورتك في أمر يخصني.

والتزمتُ الصمت من جديد، فلا أعرف كيف أبدأ، ولكنه بادر قائلًا:

- هل يخص أيضًا إيهاب شكري؟

اندهشت.. إلى هذا الحد أمره مفضوح؟! فأسرعت قائلة:

- لقد عرض عليَّ الزواج بالأمس.

نظرتُ إلي وجه المايسترو، وجدته خاليًا من أي تعبير، ثم ملأ النداء مسامعنا: " رجاء الانتباه، النداء الأخير، طائرة مصر للطيران رحلة رقم 237 المتجهة إلى مطار القاهرة الدولي على وشك الإقلاع، يُرجى من السادة الركاب سرعة التوجه إلى البوابة رقم(24). "

حملنا أمتعتنا في الحال، وتوجهنا إلى الممر المفضي إلى



الطائرة، وأخذنا مقاعدنا داخلها، وجلستُ إلى جانب النافذة، وبجانبي "هايدي"، ولكن بعد دقائق معدودة طلب منها المايسترو "حسن البحيري" أن يتبادلا مكانيهما، فاستجابت في الحال، وعلمت حينها أن للحديث بقية، ولكن المايسترو ظل صامتًا، فقلت له بعد برهة:

- لم تقل لي رأيك في زواجي من إيهاب؟

قال لي باقتضاب:

- المهم هو رأيك أنتِ.

قلت، وأنا أحاول أن أعدد مزايا الزيجة:

- إيهاب رجل مقتدر، يحبني، يحاول إسعادي بكل وسيلة، وأهم من ذلك معاهدته لي أن يكون أبًا آخرَ لحمزة، وأنت تدرك حالة حمزة جيدًا، أنا فعلًا..

قاطعني قائلًا:

- وماذا عن قلبك؟

قلت بنبرة ندم:

- لقد أتبعت قلبي قديمًا، ولكن انظر ماذا جنيت! لا شيء.

قال بحزم:

- قطعًا جنيتِ. لقد فزت بصدقك مع نفسك، وإخلاصك في كل



كلمة حب نطقتِ بها، وفي كل تصرف صدر منك. لقد اشتريتِ نفسك يا نورا، وحياتنا سوقٌ، إما أن تبيعي نفسك فيه وإما أن تشتريها.

كان لكلامه وقع غريب في نفسي، لأول مرة أدرك جانبًا مشرقًا لقتامة الأحداث التي مرت بحياتي، أجل. فما زلت أحتفظ بكياني؛ لأني كنت صادقة في كل ما بدر مني.

أفقت على إعلان الشرح العملي لإجراءات السلامة، ثم طلب منا أحد أعضاء طاقم الطائرة المُكث في أماكننا وربط الأحزمة استعدادًا للإقلاع، رددت دعاء السفر، ثم نظرت من النافذة، والطائرة تعلو تدريجيًّا، وأخذت أتأمل المباني والشوارع كيف يصغر حجمها وتختفي، تُرى هل تصغر مشاكلنا وتختفي إحباطاتنا كذلك إذا ما تعالينا عليها؟ ثم نظرت إلى السماء بدرجاتها الزرقاء الزاهية، والسحب القطنية العالقة بها وأشعة الشمس الذهبية تخترقها بجرأة وجسارة، وشعرت وقتها أننا ذرة هباء في هذا الملكوت الأعظم، فما بال مشاكلنا وهمومنا؟! أغمضت عيني، وجالت بخاطري مبادرة إيهاب بالأمس، وكيف زحف الوقت ثقيلًا على قلبي على الرغم من روعة المكان وسخاء العرض، ولم تمهلني ذكرياتي.. بل أخذتني إلى أغوار الماضي لحدث مشابه.. ولكن بمذاق مختلف.



القاهرة، 2000

كان أيضًا عرضًا للزواج، ولكن جاء ممن ملأ كياني ووجداني، بل استحوذ عليَّ كلية، كنت أراه في نومي ويقظتي، يا إلهي.. لا أتذكر أني شعرت بمثل هذا الإحساس من قبل، جذبني منذ أن وقعتْ عليه عيناي في حفل دار المسنين، ثم أسرَني بعد ذلك بتفاؤله واهتمامه ودفئه، لا أنسى مساندته لي بعد كبوتي الأولى، أصر على أن أستمر في العروض على الرغم من يأسي وفقداني ثقتي بنفسي؛ جراء إخفاق فرقتنا الصغيرة في حفلنا الأول، ثم تشتيتها بعد ذلك، أما أنا فواصلت؛ لأنه كان بجانبي يشد من أزري، وجدت فيه الصديق والأب والحبيب، وأصبحت أعد ساعات عمري باللحظات التي أراه فيها، وكان قد عوَّدني أن يتردد عليَّ أثناء تدريبي في الأوبرا، وفي بعض الأحيان كان يمر عليَّ في النادي، تعرَّف من خلال هذه اللقاءات على أمي وأخي الصغير وأصدقائي ومعارفي، ملك قلوب الجميع، كان يُشعِر كلًّا منهم بأنه محط اهتمامه، حتى أخي حسام كان يتحدث معه بالساعات عن مباريات كرة القدم وفرقها المحلية والعالمية، وفي بعض الأحيان كان يشاركه في اللعب مع أصدقائه في ملعب النادي! أأحببته؟ بل عشقته وذبت فيه، وكنت أحيانًا أسأل نفسي هل هو من بني البشر أم ملك وجنَّته في عينيه؟ ولكن هل يملك الملك أن يعذب؟ حتى لو كان عذابه حلو المذاق؟ كان عذابه

يكمن في كتمان ما يجيش به صدري من لوعة وحب، فأنا فتاة، والفتاة لا تستطيع البوح بمشاعرها مهما بلغت درجتها، هذا قدرنا.. ربما نثاب على صبرنا عليه، وتساءلت ماذا لو لم يبادلني شعوري؟ ظننت أنه سيكون الجحيم بعينه، ولم أدرِ وقتها أن الجحيم بين أحضانه.

وجاء حفل يوم عيد الأم في النادي، وكنت قد أعددت له العدة مع بعض أصدقائي وعدد من أفراد الإدارة، وبالطبع كان لي فقرة على المسرح بالخيمة المنصوبة داخل الحديقة الاجتماعية بالنادي، أجلست الأمهات في الصفوف الأمامية، وأخذتُ أبحث عنه عن يميني وعن شمالي، فوجئت أنه تغيب اليوم، وهذا ليس من عادته، وانتابني بعض القلق، إذ كنت لم أره منذ عشرة أيام، صحيح.. كنت أعلم أنه قد سافر في رحلة عمل، ولكن كان من المفترض عودته منذ يومين، وتساءلت هل سأعتلي خشبة المسرح دون أن أرى عينيه لتثبتاني كما عودني في الآونة الأخيرة؟

استجمعت قواي، واتصلت بمحمول سكرتيرته رباب؛ لأتحسس أخباره، لقد أزعجني اشتياقي إليه إلى أبعد الحدود، وعندما سمعت صوتها؛ قلت:

- مساء الخير آنسة رباب، نورا معك. أعتذر لاتصالي في وقت غير مناسب.



قالت رباب، بترحاب:

- لا داعي للاعتذار، يمكنك الاتصال بي في أي وقت.

قلت بتردد بعض الشيء:

- هل عاد أستاذ شريف من سفره؟

- لم يعد بعد، ويبدو أنه سيتأخر لمدة أسبوعين آخرين.

- أسبوعان آخران؟!

لم أدرِ كيف فضحني لساني وكشف عن حنيني ولوعتي في كلمتين، فأنهيت المكالمة في الحال وأنا أعتذر مرة أخرى لاتصالي في غير أوقات العمل الرسمية، ولكن كيف يغيب عني وهو يعلم بموعد الحفل؟! كيف يفعل بي هذا؟ هل بدأ حماسه يفتر؟ هل أعرض عني لسبب في نفسه لا أعرفه؟ ولكن.. كيف سمحتُ لنفسي أن أَقع أسيرة في هواه إلى هذا الحد؟

وبدأ العرض، وسألت نفسي أيمكن أن يعزف الجماد لحنًا؟ فهذا كان حالي بدونه، كنت أشعر أن روحي قد غابت عني، وكدت أن أعتذر عن العرض؛ لولا أن منعتني عيون الأمهات، فمن حقهن أن أقدم إليهن بعض لحظات من السعادة.

بدأتُ العزف بلحن أغنية لفايزة أحمد (ست الحبايب)، ثم استرسلت في العزف، وكان منظر الأولاد وهم يحنون على أمهاتهم



ويقدمون لهن الهدايا في غاية الروعة، ابتسمت ونسيت حرماني لبعض الوقت، وبعد أن أنهيت العرض، قدمت أنا أيضًا هديتي لأمي، وكان معي أخي حسام، واتخذت مجلسي بجانبها هي وأخي وبعض صديقاتي، ثم بدأت الفقرة التالية حيث صعد بعض الأولاد بأعمار مختلفة على المسرح؛ ليشكروا أمهاتهم عبر "المايك" ، فأظهر كل منهم امتنانه من خلال شعر أو زجل أو من خلال أغنية معروفة أو من تأليفه، أو بكلام غير مرتب ولكنه خارج من القلب، وتفاعل معهم الجمهور إلى أقصى حد، وأغمضت عيني على أمل أن أرى صورته بين جفوني، وفجأة.. سمعت صوته عبر "المايك" ، ارتعدت وفتحت عينيَّ على الفور؛ لأتأكد من سلامة أذنيَّ، فعلًا.. وجدته ماثلًا أمامي يتحدث بابتسامته الدافئة، وقد طغت جاذبيته على القاعة، فأنصت الجمهور إليه بهدوء واهتمام بالغ، وهو يقول:

- كنت في رحلة عمل، قطعتها وجئت إلى هنا لأعبر - وأنا بينكم - عن امتناني لأجمل نساء الأرض في عيني.. وأعلن للفتاة التي اخترتها أن تكون أمًّا لأولادي أني حقًّا عشقتها من كل قلبي.

ساد الصمت بين كل من بالخيمة، وجال الجميع بأعينهم حول الفتيات الحاضرات في محاولة لاكتشاف المرأة التي استحوذت على قلب "شريف"، وبعد لحظات نظر شريف إلى أمي، قائلًا:



- خالة هناء، هل تقبلينني زوجًا لابنتك؟

دمعت أمي من الفرح، وأومأت برأسها لقبول العرض، وصفق الجميع وهللوا، وحاطَني معارفي وأصدقائي للمباركة، أما أنا.. فلم أستوعب ما يحدث، لم أتصور أبدًا أن يتحقق حلمي البعيد في لحظة، أخذت أبكي وأضحك في آن واحد.. يا لها من لحظة! لن أنساها ما حييت.



هـــو

سان فرانسيسكو، 2008

تعتبر شركة (براندنج) من الشركات الرائدة في مجال الدعاية في أمريكا، وقد عملتُ بها لمدة عام، ثم ما لبث أن عرض عليَّ مالكها ومديرها الدخول معه شريكًا بحصة صغيرة؛ ليضمن بقائي فيها، وكانت فرصة ذهبية بالنسبة لي وله، إذ تضاعفت أرباح الشركة، وعَلت أسهمها في بضع سنين.

وذات يوم كنت مع شريكي وعدد من الموظفين في قاعة الاجتماع بمركز شركة (براندينج)، وكنا نتناقش في أفضل طريقة لتسويق أحدث



ألعاب الكمبيوتر لأولاد تتراوح أعمارهم بين سن الثمانية إلى أربعة عشر عامًا، وكانت اللعبة عبارة عن صراع حربي بالطائرات، اتفقنا على الخريطة التسويقية في المناطق المختلفة وكيفية التوسع، ومضمون الإعلان وتاريخ عرضه، ولكننا اختلفنا على شكل العلبة، فمنا من رأى أن تكون على شكل طائرة حربية؛ فتغري الأولاد بشرائها، ومنا من رأى أن تكون العلبة بسيطة ومربعة الشكل، وخالية من أي رسوم، فتجذب الأولاد لأناقتها وغموضها، علاوة على سهولة تداولها وتخزينها، ومنا من رأى أن توضع صورٌ للمعارك على سطحها، ولحسم الخلاف اتفقنا على أن نقوم باستطلاع رأي لمعرفة ما يفضله الأولاد في هذه السن، ثم أردفت "ليندا" إحدى موظفات الشركة قائلة:

- نستطيع أن نبدأ استطلاع الرأي بابن شريف، أعتقد أنه في نفس السن المستهدفة، أليس كذلك يا شريف؟

تملكني الغيظ من "ليندا"، فهي تدرك جيدًا أن ابني لم يبلغ الخامسة بعد، وتدرك تمامًا أني محروم منه، ومع ذلك أجدها تحاول أن تذكرني بمأساتي كلما سنحت لها الفرصة، قد يكون هناك أكثر من سبب يحركها ويدفعها لاستفزازي، ربما تدفعها غيرتها بسبب تفوقي وارتقائي المستمر في الشركة، وربما شعورها بالرغبة في الانتقام، فكان يؤلمها عزوفي عنها بعد أن صارحتني بحبها، فهي لم تفهم أنني



لا أستطيع أن أقيم معها أي علاقة أو حتى مع غيرها، هذا حالي منذ أن تركت من أحببت، ثم رثيت لحالي، وسألت نفسي هل من الإنصاف أن أظل راهبًا في محراب من فضلت عليَّ نفسها ومجدها؟! بل وحرمتني بأنانيتها المطلقة ببضعٍ مني؟ ولكني تنبهتُ أني لم أعد بمحرابها، فقد هجرته، وكل محاريب بني جنسها حتى أقيَ نفسي شرورهن، وشعرت بجرح في صدري يُدمي، وصوت مخنوق بداخلي يبكي الأبوة الضائعة، والعمر الذي يفنى هباءً منثورًا، يا بني.. أين أنت مني الآن؟ كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وماذا يقولون لك عني؟

كان حتمًا عليَّ أن أرد على "ليندا"، فقلت:

- إنك تدركين جيدًا أن ابني لا يزال صغيرًا، ولا ينتمي إلى الفئة العمرية التي نتحدث عنها.

قاطعنا "بيتر" المدير العام، قائلًا:

- لابد من الالتزام بالفئة العمرية، وإنجاز استطلاع الرأي في الموعد المحدد، وبِناء عليه.. سنحدد شكل العلبة.

عدت إلى مكتبي الفاخر بعد الاجتماع، وغصت من جديد في أفكاري.

تذكرت وحدتي ومعاناتي أعوامًا طوالًا، تذكرت خيالها وهو



يطوف حولي كل ليلة، فأسأله وأحاسبه حسابًا عسيرًا، أبهذه البساطة أذاقتني البعد والحرمان؟ وانتهت حياتنا معًا لمجرد عدم رغبتها في السفر. فضَّلتْ نجاحها الفني وشهرتها على بقائها معي، لم أكن أتصور ردَّ فعلها بعد كل ما فعلته من أجلها، فقد ضحيتُ بمستقبلي ورجَّحتُ كفَّتها على استقراري في وظيفتي واسترجاع حقي، فقد توترت العلاقات بيني وبين عمي، واستأنفنا معركتنا القديمة من جديد، كل ذلك وقع بسببها.

القاهرة، 1999

أتذكر جيدًا ذلك اليوم الذي صارحتُ عمي فيه برغبتي بالزواج من "نورا"، كنت في بيته وكانت زوجته كعادتها قد أعدت لي عشاءً شهيًّا، وكنا نجلس في الحديقة نتغنى برائحة الشواء، كانت نانسي ابنة عمي تجلس بجانبي، والخدم من حولنا يباشرون أعمالهم ويضعون أمامنا الطعام الطازج، مالت عليَّ نانسي قائلة:

– لقد اشتريت فستانًا أنيقًا يا شريف بمناسبة حفل تخرجي، أرجو أن تحضر الحفل معي؛ حتى تكتمل فرحتي.

لقد أصبحت أبغض اهتمامها الزائد بي بعد أن دخلت "نورا" حياتي، ولم يكن بُد من أن أعتذر بلباقة، فقلت:

– كنت أتمنى أن أحضر، ولكن عملي يمنعني.



ضحك عمي قائلًا:

- لا تقلق، سأمهلك في العمل يومها.

خرج رامي ابن عمي من الداخل، ورمقه عمي بنظرة غضب، مجرد رؤيته باتت تؤلم عمي كثيرًا؛ لأنه كان يذكره بفشله، إذ ظل رامي في كلية التجارة أكثر من سبع سنوات، ومع ذلك لم يُجز فصله؛ لأنه كان بارعًا في تقديم شهادات طبية مزيفة يدَّعي فيها إصابته بمرضٍ وهميٍّ حتى يؤجل امتحاناته، أما عمي فلم يكن له دور إلا إلقاء اللوم على زوجته بإتلافه؛ لكثرة تدليلها له.

وعندما هلَّ رامي علينا، قال له عمي بحسرة:

- أين كنت يا فالح؟ هل نويت أن تتخرج هذا العام أم سترسب كعادتك؟

أحسست بإحراج رامي، فقد كان أبوه يوبخه في كل مناسبة وفي كل وقت، فبادرت قائلًا:

- رامي سيتخرج هذا العام بإذن الله، فنحن في انتظاره لينضم إلينا في الشركة.

قال عمي:

- بالطبع مكانه محجوز، أدعو الله أن يتخرج، وننتهي من هذا الكابوس.



قالت زوجة عمي:

- وحينها تكون الفرحة فرحتين، زواج نانسي وشريف وتخرُّج رامي.

احمرت وجنتا نانسي، أما أنا فشعرت بضرورة البوح بحقيقة مشاعري، وولعي بنورا، فاستأذنت عمي وطلبت منه أن أتحدث معه على حِدة، وظن الجميع أني أحدثه بخصوص تفاصيل زواجي من نانسي، ولكني قلت لعمي بعد أن أجلسني في غرفة مكتبه بعيدًا عن بقية أفراد أسرته:

- عمي، لا يسعني إلا أن أَقول لك إن ابنتك بالنسبة لي ليست إلا أختًا عزيزة، أقدرها وأكنُّ لها كل احترام، وأتمنى لها دوام السعادة.

رمقني عمي بنظرة غضبٍ جلي، أدخلت في قلبي الرعب لوهلة، ثم قال:

- هل أفهم من ذلك أن قلبك مشغول بأخرى؟

قلت، وأنا حذر:

- أجل يا عمي، وأنت تعلم أن مشاعرنا ليست بأيدينا، كنت أتمنى أن ألبي لك أي طلب، لكن لا يمكن أن أخدعك، نانسي تستحق أن تعيش مع من يحبها.

قال عمي بالهدوء الذي يسبق العاصفة:



- اخرج الآن دون أن تتفوه بكلمة، وسأقوم بشرح موقفك للعائلة بعد رحيلك.

- فهمت يا عمي.

واحتدمت المعركة بيني وبين عمي، ولكل معركة منتصر ومهزوم، والمنتصر يملي شروطه على المهزوم في نهاية المطاف، وقد أدى ذلك إلى حتمية الابتعاد عن أرض الوطن إلى غير رجعة.

القاهرة، 2004

ثم تذكرت يوم أن حسمت أمري للسفر، لم يكن لي خيار آخر، عدت إلى منزلي في المعادي، وكنت في غاية الحزن واليأس، ليس فقط لسلسلة الإحباطات التي حاطَتني في عملي، ولكن لتدهور علاقتي المستمر مع من أحببت، وجدتها جالسة في غرفة المعيشة تتكلم عبر محمولها مع صديقة لها، أما حمزة فكان عمره أسابيع حينذاك، وكان نائمًا في غرفته كالملاك، انتظرت أن تنهي المكالمة ولكنها لم تفعل، ظلت تتحدث عن العرض الذي جاءها من أكبر الملحنين في مصر، وعلى الرغم من أنها كانت على دراية بعدم قبولي لهذا العرض، تحدَّثتْ عنه كأنه تأشيرتها لدخول الجنة! جُنَّ جنوني، وأحسست أنها لم تعد تأبه بي وبمشاعري، فصحت غاضبًا:

- أنهي المكالمة حالًا. ألا ترين أني واقف أمامك؟

ذبحتني بنظرة استهجان وعدم مبالاة، وأكملت حديثها. لم يكن بوسعي إلا أن أنتزع منها محمولها بقوة، وألقيه خارج النافذة، فصاحت قائلة.. وهي تصرخ باكيةً:

- لقد مللتُ جنونك، كيف تقذف محمولي بهذا الشكل؟

قلت بحدة؛ لأني قد سئمت عدم اهتمامها بي في الآونة الأخيرة:

- أجدك لا تبالين بوصولي البيت.

قالت بغِلٍّ:

- هل كنت تريدني أن أغلق الهاتف في وجه صديقتي لمجرد أنك وصلت المنزل؟ أم غاظتك فرصة عملي مع حسن البحيري؟

قلت بحزم:

- لن تعملي مع حسن البحيري أو غيره. لقد أغلق هذا الموضوع إلى الأبد، يجب أن نهاجر في خلال أيام.

- هل تظن أني تمثال تحركه كيفما شئت؟ تبلغني بنبأ سفرنا هكذا كأنه أمر واقع دون استشارتي!

- ليس عندي صبر للمجادلة، رتبي نفسك على السفر.



- إذًا، أنا غير موافقة. فلن أسافر معك تحت أي ظرف.

تذكرت كل عبارات الحب التي همست بها، ولكن كانت مجرد عبارات راحت أدراج الرياح عند أول محك، فزهوها بنفسها استفحل وطغى على بقائها مع من تحب، لا.. ما أظن أبدًا أنها يومًا قد عرفت الحب!

الفصل الرابع

هـــي

القاهرة، 2008

وصلنا إلى مطار القاهرة، وقد أفزعني عدم رؤية حمزة وأمي وأخي في المطار، لماذا لم ينتظروني كما تعودت؟ حمزة، أفتقدك كثيرًا يا بني، الساعة الخامسة ولم يتأخر الوقت بعد، فلِمَ حجبتكَ أمي عني؟ أخذت أبحث عن محمولي في حقيبة يدي، ساعدني في إخراجه من الحقيبة صوت جرسه، ففتحته بسرعة، وإذ بصوت أمي تقول لي:

– نورا، لا تقلقي علينا.

زادني كلامها خوفًا ورعبًا، فقلت:

– ما خطبكم يا أمي؟ أين أنتم؟

قالت أمي، وهي تحاول أن تواري فزعها:

– لقد أصيب حمزة بإرهاق شديد اليوم في الحضانة، نُقل على إثره إلى المركز الطبي بالجبل الأخضر، اطمئني.. حالته مستقرة الآن.

أخذت سيارة أجرة واتجهت مباشرة إلى المستشفى، أجهشت



بالبكاء وأنا في طريقي إليه. حمزة، من يطمئنني عليك؟ ماذا أصابك يا بني؟

وعندما وصلت وجدته داخل غرفة الرعاية المركزة، أما أمي وحسام فكانا يقفان أمام باب الغرفة، وقلباهما ينفطران ألمًا وخوفًا عليه. علمت من أمي أنها لم تقم بنقل الدم لحمزة في موعده؛ مما أدى إلى هبوط حاد في قلبه الصغير، لُمتها قائلة:

- لماذا أهملتِ في حمزة يا أمي؟ هل نسيتِ أن الطبيب قد أوصانا بضرورة الالتزام بمواعيد نقل الدم؟

قالت أمي بحدة:

- تدركين جيدًا أنني لا أستطيع نقل دمه في غيابك، بل وغياب طبيبه الخاص الدكتور عامر عبدالرحيم؛ لحضوره حاليًّا مؤتمرًا بالخارج، فما كان عساي أن أفعل؟

قال حسام وهو يأخذنا تحت ذراعيه:

- ششش، هذا ليس وقتًا للعتاب، بل وقت للدعاء؛ كي يشفي حمزة.

حمدت الله أن إدارة المستشفى وافقت على دخولي غرفة الرعاية في غير وقت الزيارة، وقفت بالقرب من ابني أتأمل الأجهزة الداخلة



والخارجة من جسده النحيل من خلال أنابيب من الأنف والحنجرة، يا بني، بالله عليك تحمل. أخذت أعد أنفاسه، وأترجى ملك الموت أن يمهلنا بعض الوقت، بل لو أستطيع لكنت عقدت معه صفقة ليأخذ من عمري بدلًا منه، ثم أدركت أن ما يجول بخاطري ما هو إلا نوع من أنواع القنوط. استغفرت ربي، وأخذت أناجيه وأدعوه أن يترك لي حمزة.. هديته الغالية.

ومرَّت ساعاتٌ حرجةٌ بين الخوف والأمل والرجاء، وأول ما أفاق حمزة، وانتزع الطاقم الطبي منه الأجهزة، همس باسمي قائلًا:

- أمي، أوحشتني كثيرًا.

وكأني عدت إلى الحياة بعد سماعها، وأخذت أبكي وأقبل يديه الصغيرتين، وأحمد ربي، أحيانًا نظن أننا غير قادرين على خوض المحن؛ لظننا أننا نجتازها وحدنا، فننسى أو نتناسى أن هناك من يثبتنا ويعيننا عليها.

وبعد مرور يومين.. كنت أنا وأمي وحسام في حجرة حمزة الذي كان قد انتقل إليها، وكنا ننتظر الطبيب ليصرح لنا بالخروج من المستشفى، دخلت علينا الممرضة؛ لتقوم بأعمالها الروتينية من قياس الضغط والحرارة، فسألتها أمي:

- لقد تأخر الدكتور عبد اللطيف، متى سيمرعلينا يا ابنتي؟



قالت الممرضة وهي ترجُّ الترمومتر :

– معه حالة حرجة الآن، وبعدها سوف يمرُّ. اطمئني.

خرجت الممرضة، ثم قال لي حسام مبتسمًا:

– نورا، لم تأتِ فرصة؛ كي أخبركِ كم كنتِ رائعة في الحفل، لقد اتصل بي كثير من أصدقائي ليهنئوني عليك.

قال حمزة بحماس:

– وأصدقائي أنا أيضًا يا أمي شاهدوكِ، حتى مدرستي أشجان شاهدت الحفل ورُقتِ لها كثيرًا.

ضممتُ حمزة إلى صدري، ونظرتُ إلى أمي على أمل أن تثني على أدائي في الحفل، ولكنها قالت:

– هل قابلتِ إيهاب شكري في دبي؟

انزعجت من سؤالها، كنت أعلم أن من ورائه مغزًى؛ فقلت:

– كيف عرفتِ أنه حضر الحفل؟

– لقد أخبرني قبل أن يغادر إلى دبي.

أخذتُ أمي خارج غرفة حمزة، لم أرد أن يسمع شيئًا حول هذا الموضوع، خفت على نفسيته أن تتأثر، وأخذنا مجلسنا أنا وأمي في كافيتريا المستشفى. أما حسام فظل جالسًا مع حمزة لرعايته حتى نعود،



وبعد أن طلبنا فنجانين من الشاي بالحليب قالت أمي:

- إيهاب عريس ممتاز، لن تجدي مثله أبدًا، يحبك حبًّا جمًّا، ومتفهم لكل ظروفك.

آخر شيء كنت أرجوه أن تعلم أمي بعرض إيهاب، فقد كنت أدرك جيدًا أنها ستمارس عليَّ أكبر ضغوط؛ لأوافق علي هذه الزيجة، وذلك قد يؤثر على سلامة قراري، فقلت بحزمٍ:

- لا أريد أن أخوض في هذا الموضوع يا أماه.

فقالت أمي بحدة:

- ماذا تعنين؟ هل تظنين أنك سوف تعيشين هكذا؟ أنسيتِ أنك مطلقة؟ وأن مجتمعنا لا يرحم من تعيش وحدها دون رجل.

- أنتِ مثلي. لقد مات زوجك، فلِم لم تتزوجي بعده؟

قاطعتني أمي قائلة:

- الأرملة غير المطلقة. وأنتِ تعرفين هذا عن ظهر قلب.

قلت متوسلة:

- كفاك يا أماه، بالله عليك، تشعرينني وكأنني أجرمت لمجرد أني مطلقة.

- يا ابنتي، أريد أن أطمئن عليك.



قلت بتهكم:

- ما أغرب منطقك! ألا يمكنك الاطمئنان عليّ إلا لو كنت في عصمة رجل؟

وتذكرت والدي، فلم يكن في الإمكان أن تتزوج أمي من بعده؛ لأنه لا يوجد على الأرض من يحل محله، هذا هو السبب الحقيقي حول عزوف أمي عن الزواج بعد أبي، وليس لأنها أرملة وغير مطلقة كما تدَّعي. أبي أيضًا كان يعاني من حدتها وطباعها القاسية، فكان عكسها هادئ الطبع، لينًا رقيقًا، يزن الكلمة ألف مرة قبل أن ينطق بها لسانه؛ لأنه يمقت أن يجرح أحدًا، وكان يصبرعلى لذاعة لسانها حين تؤنبه على شيء، كم تحملت يا والدي! رحمة الله عليك.

دق جرس محمولي، وإذ بحسام يخبرني أن الدكتور عبد اللطيف في الغرفة يجري الكشف على حمزة، فصعدنا أنا وأمي مهرولين إلى غرفته، وبعد الكشف قال لنا دكتور عبداللطيف:

- الحمد لله، لقد تحسنت حالة حمزة كثيرًا، وأصبح في الإمكان مغادرة المستشفى إذا رغبتما.

قلت بفرحة:

- ألف شكر يا دكتور.



- لا شكر على واجب.

وبعد برهة، سألني دكتور عبد اللطيف قائلًا:

- مدام نورا، من الذي يتابع معكم حالة حمزة؟

- الدكتور عامر عبد الرحيم، ولكنه الآن في الخارج.

- مؤكد أنه اقترح عليكم عملية زرع نخاع لحمزة.

- لقد نصحنا بالعملية في بادئ الأمر، ولكن للأسف ليس لحمزة إخوة أشقاء، ولم نجد أنسجة متطابقة معه في بنوك خلايا الدم الجزعية بالخارج؛ ولذلك تعذر علينا الزرع.

قال الطبيب مقاطعًا:

- أقترح عليكِ أن تنجبي طفلًا يكون لعينك قرة، وفي نفس الوقت يسمح لنا أن نزرع لحمزة من الحبل السري حتى يشفى تمامًا، أحذركِ من دوام نقل الدم؛ لأنه ليس بحلٍّ عمليٍ، وله مشاكله الخطيرة في المستقبل.

قالت أمي بانفعال:

- قل لها يا دكتور، انصحها، لقد حاولت مرارًا أن أقنعها بأن تتزوج مرة أخرى وتنجب إخوة لحمزة وتستمتع بحياتها.

سألني دكتور عبد اللطيف مستفهمًا:



- هل أنتِ منفصلة عن أبيه؟ إن الحل الذي اقترحته عليكِ غالبًا ينجح إذا كان الوالد هو نفس والد حمزة، أما إذا كان رجلًا آخر فسيصعب إجراء العملية.

بعد أن خرج الطبيب، قمنا بالانتهاء من إجراءات الخروج من المستشفى والعودة إلى منزلنا، كنت أجر ساقي وأنا أسترجع ما قاله الطبيب لنا، وعجبت من نفسي، لِمَ أشعر بكل هذا الإحباط؟ فما قاله الدكتور عبد اللطيف لنا اليوم لم يكن جديدًا عليَّ على الإطلاق، فقد طرحه الدكتورعامر في بداية اكتشافنا مرض حمزة، وعندما علم أن ابني وحيد، وأني قد انفصلت عن أبيه، بحثنا عن تطابق أنسجة لحمزة في بنوك خلايا الدم الجزعية في أوروبا وأمريكا، مع العلم أن نسبة وجود التطابق ضئيلة جدًّا، لا تتجاوز ثلاثة في المائة، ولما فشلنا في العثور على أي تطابق لم يُعِد الدكتور عامر عليَّ فكرة الزرع ثانية، بل اعتبر أن العلاج عن طريق نقل الدم هو الحل المتوفر أمام حمزة، ولكن اليوم كان لكلام الدكتور عبد اللطيف وقعٌ آخر، ربما لأنني كدت أن أفقد فلذة كبدي أمام عينيَّ. يا إلهي! هل يمكن أن يكون الحل الوحيد أمامي هو رجوعي لشريف؟ ولكن كيف؟ نظرت إلى أمي وجدتها شاردة كذلك طوال الطريق، أما حسام فظل يتحدث مع حمزة ويمزح معه ليلهيه عما أصابه، وكان حمزة يتجاوب معه ببراءة، فقد كان يسعد دائمًا بالحديث مع خاله.

وعند عودتنا إلى البيت، وضعت حمزة في فراشه وتأكدت أنه أخلد إلى النوم، ثم دخلت غرفتي بهدوء وجلست على الأرض وأسندت صدري إلى ركبتيَّ، وأخذت أبكي بحرارة وبصوت مكتوم، كيف أنقذك يا ولدي من مصيرك المحتوم؟ نقر حسام باب حجرتي نقرة خفيفة، ثم دخل.. انزعج عندما وجدني جالسة على الأرض أبكي، فرفعني برفق، فازداد بكائي على صدره، ثم قال لي، وهو يربت عليّ:

- لِمَ لا تعودين إلى شريف من أجل إنقاذ حمزة؟

قلت له بانزعاجٍ، وأنا أمسح دموعي:

- ماذا تقول؟! لا يمكن أن أعود إلي شريف بعد كل ما حدث بيننا، ثم من قال لك إن شريف سيرضى بالعودة أو سيهتم، فهو يحيا حياته كيفما يحلو له في أمريكا ولا يبالي أحدًا، لم يعد بيني وبينه سوى المبلغ الشهري الذي يرميه لابنه وليس أكثر.

وبعد لحظات سمعنا صوت حمزة يصرخ من حجرته، فهرعنا إليه.. وجدناه مفزوعًا على فراشه، أخذ يبكي ويقول:

- حلمت حلمًا مروعًا، لقد رأيت في المنام وحشًا يجري ورائي، وأمي بعيدة عني، تراه وتراني، ولا تفعل شيئًا.





هـــو

سان فرانسيسكو، 2008

كنت مع مجموعة من أصدقائي وجيراني نلعب لعبة البلياردو في إحدى الحانات الرياضية بضاحيتنا، ضرب دوجلاس بعصاه الكرة، وعندما أدخلها في الجيب المخصص بمائدة اللعب، قال بابتهاج:

- وعد مني إذا فزت في هذا الدور فسوف أدعوكم أنتم وصديقاتكم لقضاء العطلة الأسبوعية في أي مكان تختارونه.

قلت ضاحكًا:

- انتبهوا، "دوج" يعطينا رشوة كي يفوز، هل حقًّا تصدقونه؟

قال دوجلاس مقاطعًا بعد أن علت ضحكاتهم:

- أنا جاد وصادق في دعوتي، سنقضي يومين في فندق فيرمونت.

قال "أندرو" صديقنا - وهو يأخذ رشفة من كأس البيرة:

- لا بأس، دعوه يفوز بهذا الدور، فدعوته لا ترد.

ثم صاح "بيل":

- وفي هذه الحالة أقترح على "شريف" أن يصحب معه "ليندا"



حتى لا يقضي الإجازة وحيدًا دون امرأة.

قلت بتأفف:

- أعوذ بالله! وما شأنكم بي؟ إني راضٍ وسعيد بحالي.

قال "دوجلاس" بابتهاج:

- سأسدي لك معروفًا وأعرفك بفتاة في غاية الجمال كي تصاحبك يومها، أراهنك أنك لم ترَ مثلها حتى في أحلامك. جين ماكارثر، وإن لم ترق لك سنتأكد أنك إمَّا راهب وإمَّا شاذ.

قلت بلؤم، وأنا أضع الكرة داخل الجيب:

- أولًا، لا يمكن أن أكون راهبًا لأني مسلم، ثانيًا لو كنت شاذًا، لكنتم أول من يقع في شباكي!

ضحك الجميع ضحكًا هستيريًّا، حقًّا إن مزاحنا - نحن معشر الرجال - ليتسم أحيانًا بالوضاعة.

ورتبنا لقضاء العطلة الأسبوعية، وأنا عائد إلى بيتي تعجبت من نفسي، كيف تسنَّى لي أن أوافق على عرض دوجلاس؟ يبدو أنني سئمت الوحدة، ومللتُ حياتي الروتينية وأريد أن أتيح لنفسي فرصة أبدأ فيها من جديد مع أخرى، ولكن هل يمكنني ذلك؟ لابد أن أخوض التجربة لأعرف الجواب.



الفصل الخامس

هــي

القاهرة، 2008

كنت أتدرب مع أعضاء فرقتنا في (استوديو حسن البحيري)، وكنت كعادتي في الآونة الآخيرة أعاني من تشتُّت ذهني حاد، فأصبحت لا أركز كثيرًا في عملي، باتت الهموم تداهمني فتؤثِّر في أدائي، وكان المايسترو يتحمل شرودي، كم كنت أخشى أن ينفذ صبره معي!

في ذلك اليوم، وزَّع علينا المايسترو النوتة الموسيقية للحنه الجديد (حياة)، وكان الغرض منها أن تكون موسيقى تصويرية لفيلم يحمل الاسم نفسه، وبعد أن أخذنا مجلسنا، وقمنا بضبط أدواتنا الموسيقية، عزف المايسترو اللحن الجديد، كان أكثر من رائع، ولكن كان هناك إحساس بحزنٍ عميقٍ ينبعث من ذلك اللحن الشجي، فكان له أثرٌ بالغٌ على من يحمل ما يكفيه من هموم، وبعدها.. سألَنا المايسترو عن رأينا في اللحن، قال هاني:

- اللحن رائع يا مايسترو، ولكن يشوبه حزن دفين.



قال المايسترو بابتسامة:

- هذا ما أردته؛ لأنه يناسب قصة الفيلم، فالفيلم حزين جدًّا.

قالت هايدي:

- لا أدري لماذا ينتجون مثل هذه الأفلام الكئيبة؟!

قلت:

- لأن الفيلم يحمل اسم (حياة)، والحياة في مجملها حزينة.

قاطعني المايسترو، قائلًا:

- قصة الفيلم بالطبع حزينة، لكن حياتنا ليست حزينة على الإطلاق يا نورا ، بالعكس، إذا أحسنا التدقيق سنجد أن ساعات السعادة أكثر من لحظات الحزن بكثير، والحزن غالبًا يكون من صنع أيدينا، حين تستيقظين كل صباح.. افتحي نافذتك، ومدِّي بصرك إلى القبة الزرقاء ببهائها واتساعها، واسمعي زقزقة العصافير، وتنسَّمي عبير الهواء، واشعري بالسعادة التي تغمرك، بل أدركيها حين تعزفين أجمل الألحان أو تستمعين إليها، أوعندما ترين طفلًا يحبو بمرح، أو رجلًا يمسك بيد امرأته، أو حين تقابلين صديقًا عزيزًا، أو حتى عند شرائك ملابس جديدة، لكن هذه هي عادتنا، لا نرى إلا الجزء الفارغ من الكوب.



ثم قال، بعد أن أعاد اللحن علينا:

- هيا بنا نبدأ..

أوقف المايسترو التمرين أكثر من مرة؛ لكوني لم ألتزم بالنوتة ولم أستوعب اللحن، وبعد انقضاء التدريب هَمَّ كلٌّ منا بالمغادرة، قال لي المايسترو:

- نورا، انتظري، أريد أن أتحدث إليك.

يبدو أن ما خشيت منه قد وقع بالفعل، لابد أن صبره نفد، آه.. ليته يدري كمّ الإحباط الذي عشش بداخلي، فيلتمس ألف عذرٍ لسوء أدائي.

خرج الجميع، واقترب المايسترو مني قائلًا:

- ما خطبك يا نورا؟! ما رأيتك بمثل هذا الارتباك من قبل.

- أعتذر يا مايسترو، ولكني أمُرّ بفترة حرجة من حياتي تمنعني من حسن الأداء.

قال بصرامة:

- همومك مثل سيارتك، اتركيها خارج الاستوديو لحين الانتهاء من التمرين، لا أريد أن أغير رأيي فيكِ.

لأول مرة يهددني المايسترو حسن البحيري، ويكلمني بهذه اللهجة الحادة، ولكن.. هل كنت أنتظر منه غير ذلك؟! ذرفت دمعة، وهممت بالخروج، فناداني مرة أخرى بصوت أكثر دفئًا:



- نورا.

وقفت إثر ندائه، فقال:

- هل المشكلة التي تشغلك أكبر من إيهاب؟

قلت، وأنا لا أزال أبكي:

- أجل يا مايسترو، أكبر منه بكثير.

- إذا أردتِ استشارة رجل عجوز مثلي؛ لتأخذي رأيه فيما يؤرقك، فبابي دائمًا مفتوح لكِ في أي وقت.

- أشكرك.

لم أستطع أن أشكو له، فماذا عساي أن أقول؟ أأقول له إني أسوأ أم في الوجود؟ فكرامتي أهم عندي من حياة ابني، ولا أطيق الاتصال بأبيه لأطلعه على مرض ابننا بعد ابتعاده وتجاهله، أم أقول إني فقدت الثقة في نفسي، وما عدت قادرة على اتخاذ أي قرار؟!

ثم ماذا أقول لشريف إذا اتصلت به؟ دعنا ننسى الماضي ونعود من أجل ابننا! أبهذه البساطة سيسمعني؟ ربما خوفي من أن يخذلني هو الذي يمنعني من الاتصال به، لا أريد أن يزيد جرحي أضعافَ ما أحتمل، لقد تمكنت من اجتياز محنتي معه، وأن ألملم أشلائي لأستمر من أجل ابني، لا بد أن أترك هذه الفكرة، لا أريد أن يُفتح الجرح مجددًا.



لاحقتني الذكريات وأنا عائدة إلى منزلي، هل لي أن أعود إليه؟ وكيف أنسى ما فعله بي عندما كنت في بيته؟ لقد تبدلت أحواله تدريجيًّا بعد زواجنا، وانقلب الحلم إلى كابوس، وبدا لي أنه من صنف الرجال الذي يحقر من شأن المرأة، يظن أنها متاع له يتحكم فيها كيفما شاء، مستبد ومتصلب الرأي، آه.. كم عانيت معه!.

القاهرة، 2002

كانت بداية تغيُّره في ذلك اليوم الذي أذكرُه جيدًا، أحسست فيه أنه لم يعد (شريف) الذي أحببته، كان عائدًا من عمله، وكنت قد أحضرت له فطيرة التفاح التي يشتهيها، وعندما دخل بيتنا اقتربت منه قائلة بدفءٍ:

- أوحشتني يا حبيبي.

لم يرد، فظننت أنه لم يسمعني، اقتربت منه أكثر ووضعت ذراعيَّ حوله، وقلت برقة:

- ما خطبك؟ لست معي!

لم يتكلم، وحملت عيناه لي نظرة غضب وغيظ لم أرها من قبل، فقلت له لأخفف عنه:

- لقد أعددت لك فطيرة التفاح التي تحبها، هيا نجلس معًا على مائدة الطعام، وتروي لي ما يزعجك بهذا الشكل.



جزَّ على أسنانه، وهو يقول بغيظ:

- فلتذهب فطيرة التفاح إلى الجحيم!

تعجبت من سوء سلوكه، بل وخِفتُه للحظات، ولكنه ربت على كتفي قائلًا، وهو يهم بالخروج:

- عذرًا يا نورا، تحمَّليني هذه الأيام.

تركني في حيرة من أمره، علمت بعدها أن ما أغضبه كان تعيين رامي ابن عمه في الشركة، وتسليمه مقاليد الأمور، وما أحزن شريف وأغاظه هو اعتقاده أنه أحق منه، ليس فقط؛ لأنه أقدم منه في الوظيفة ويتفوق عليه بجدارة، ولكن لتصوره أن له حقًا ضائعًا في الشركة، وقد نصحته مرارًا إمَّا أن يتجاهل الأمر ويتعايش مع الواقع الجديد، وإما أن يترك الشركة ويبحث عن عمل في مكان آخر، ليته أنصت لي! ولكن منذ متى ينصت الأزواج إلى زوجاتهم؟ فقد فضَّل الاستمرار في وظيفته مع عدم تقبله لما يجري، وكان عمه وابنه يشدِّدان عليه الخناق، ويأخذان من صلاحياته كل يوم، وبالطبع كان لذلك أثرٌ بالغٌ على طباع زوجي، فلم يعد شريف الرقيق الذي عرفته، بل أصبح متقلب المزاج، متمردًا، حانقًا على كل الأوضاع. نادرًا ما أرى ابتسامته تنير حياتي كما عودني، وطالت المدة.. وانقلب نهارنا ليلًا، فكان لا يرى الحياة إلا من منظار ضيق يحدده له عمه وابنه. ظننت أني إذا أنجبت طفلًا سيعيد إليَّ



زوجي الذي عرفته، ويعينه ليرى أن هناك ما هو أهم وأكبر مما يجري في حدود شركته، فأوقفت وسيلة منع الحمل دون علمه بعد أن كنت قد واظبت عليها لمدة عامين، أتذكر ذلك اليوم الذي صارحته بحملي، كان من أسوأ أيام حياتي، فلم أكن أتخيل عواقبه.

القاهرة، 2003

كان الجو ربيعًا، استيقظت مبكرةً في ذلك اليوم، وآثرت الجلوس في الشرفة للاستمتاع بالجو والطبيعة الهادئة في ضواحي المعادي القديمة، وأخذت أقرأ كتابًا عن تربية الأطفال، ثم استيقظ شريف بعدي، وكان – كعادته مؤخرًا – متذمرًا وغاضبًا، إذ دخل الشرفة قائلًا بغيظ:

– لا أستطيع العثور على قميصي الأزرق المشجر.

قلت؛ وأنا أحاول حل المشكلة:

– في الغسيل، تستطيع أن ترتدي أي قميص غيره في الدرج.

– يبدو أنني سأرتدي ما يحلو لكِ! ثم ما الذي يشغلك عني بهذا الشكل؟

انتزع مني الكتاب، وقرأ عنوانه، فقال باستنكار:

– هل هذا وقت مناسب لقراءة كتب عن تربية الأطفال؟

قلت؛ لأنتزع منه فتيل الغضب، أو هكذا كنت أظن:



- أجل.. وقت مناسب؛ لأني حامل يا شريف.

ظننت أنه سيحملني على ذراعيه كما شاهدت في معظم الأفلام العربية، ويضعني برفق على فراشي، ويطلب مني أن أظل ساكنة خوفًا عليَّ من الحركة، كم كنت بلهاء؛ لأنني لم أكن أتخيل هبوب العاصفة، إذ قال وكل شرور العالم تطل من عينيه:

- هل جننتِ يا امرأة، كيف سمحتِ لنفسك أن تحملي دون علمي؟

خشيت نظرة الغضب والحقد التي أطلت من عينيه، ولكن لم يكن هناك بدٌّ من أن أنقل إليه دوافعي، فقلت:

- فعلتُ ذلك من أجل إنقاذك.

قال منفعلًا، وكأنه لم يسمعني:

- يا مجنونة.. ، من أين أوفر له مأكله وملبسه؟ هل إلى هذا الحد ذهب عقلك؟! ألا ترين أنني مهدد بفقدان وظيفتي، وطردي إلى الشارع سيكون في أي وقت؟!.

قلت له مستنكرة:

- كيف تقول ذلك؟! أي إنسان يتميز بمهارتك يستحيل أن يجد نفسه في الشارع، فهناك العديد من الشركات تفتح ذراعيها للنابغين أمثالك، بالإضافة إلى أنك تستطيع أن تبدأ عملك الخاص، و..



قاطعني قائلًا:

- يبدو وكأنك لا تعيشين في مصر، أين هذه الفرص التي تتحدثين عنها؟ ألهذا الحد أصابك العمي؟! ثم لماذا أبدأ من الصفر ولي حق في شركة عمي؟

لم يكُن بدٌّ من أن أصارحه؛ حتى يفيق، فقلت:

- أنت موهوم بهذا الحق، فليس له أي أساس، ولا يوجد أي دليل عليه، يجب أن تبدأ من جديد في أي مكان آخر يا شريف.

صاح كالثور الهائج قائلًا:

- كفى. لن أسمح لكِ أن تشكلي حياتي وفقًا لهواكِ، هي كلمة واحدة. لابد أن تتخلصي من هذا الجنين.

وجدت نفسي أنطق بمنتهى الثبات:

- لا يمكن أن أتخلص من جزء مني ومنك يا شريف، كيف أتخلص من هدية الله لنا؟! انسَ هذا الموضوع.

أمسك بذراعي بقسوة لم أعهدها منه من قبل، وظل يهزني بعنف وبلا وعي، وهو يقول:

- أتعاندينني؟ إذًا سوف أقوم أنا بإجهاضك.

ولم يشفع بكائي وصراخي عنده، وإنما توقف عندما قلت:



- لم أكن أتصور أن يأتي يوم أندم فيه على حبك.

أطلق سراحي بعدها، ثم غادر المنزل غاضبًا، أما أنا فجلستُ أبكي كما لم أبكِ من قبل، وطاف أبي وحنانه بخيالي، كم أفتقدك بشدة يا أبتِ! كم أشتاق إلى حضنك لأتحصن به! تذكرت أن لي ملاذًا آخر، أسرتي الصغيرة.. فقررت أن أحتمي بها من جنون زوجي.

تركت عش الزوجية لأول مرة وذهبت إلى أمي وأخي، وحكيت لهما ما آلت إليه الأمور، كان حسام قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، تحركت نخوة الرجل بداخله وقرر الذهاب إلى شريف والتحدث إليه، وأحسست لأول مرة أن أخي الحبيب قد كبر وأخذ من أبي بعض خصاله.. الرقة والنخوة والمروءة، لم يكن بوسعي إلا أن أسمح له بالذهاب إليه، على الرغم من خشيتي أن يؤثر ذلك الموقف على علاقته الوطيدة به، وفي المساء عاد حسام ومعه شريف، ولأول مرة منذ زمن.. أشعر بدفءِ (شريف) وحنانه عندما اقترب مني ليقبل وجنتي، وهو يهمس قائلًا:

- سامحيني يا نورا، هيا بنا نكمل حديثنا في بيتنا.

وعدت معه؛ لأني تذكرت أيامنا الأولى، فكانت بمثابة الرصيد الذي أسحب منه كلما تجاوز عن الحد وأفرط فيه. كنت محقًّا يا أبي، فكلما سألتك عن سبب صبرك على أمي وتحملك شطوطها كنت دائمًا تقول: لأن رصيدها معي يسمح بذلك.



واستأنفنا حياتنا من جديد، ولكن ثمة شيء بدأ يتغير بداخلنا، فلم نعد كما كنا، ولم أعد أرى في عينيه فارس أحلامي، فعصبيته لم تتوقف، وازدادت حدته مع الأيام، وبدأ رصيده ينفد عندي، وكان ملاذي الوحيد هو فني، فذلك كل ما تبقى لي، فمن خلاله كنت أثبت لنفسي أنني لست متاعًا أو ملكًا لأحد، بل لي وجود وكيان، وأصبحت أوقات التدريب بمثابة طوق نجاة في خضم هذه الحياة المضطربة، ولم يمنعني الحمل في أيامه الأولي من العمل لتحسين أدائي، وأخذ مستوى عزفي في الارتقاء بسرعة، حتى جاء يوم رآني فيه المايسترو الرائد (حسن البحيري) أثناء تدريبي في معهد الموسيقى، وعرض عليَّ عرضًا لم أكن أجرؤ أن أحلم به، وهو أن يضمني إلى فرقته، وظننت أن هذا العرض سيروق لشريف كما راق لي، ولكن رد فعله كان غريبًا للغاية من شريف الذي أحببته، ولكنه لم يكن غريبًا على الإطلاق من شريف الذي بدأت أكتشف معالمه في الآونة الأخيرة.

كنا في منزلنا نتناول عشاءنا، وكلٌّ منا سارح في عالمه الخاص، فقد اجتازت المسافة بيننا ملايين الأعوام الضوئية، أصبحنا لا نتكلم إلا قليلًا، ثم فاجأتُ زوجي بعرض حسن البحيري. كظم غيظه لدقائق قائلًا:

- بالطبع مستحيل أن تقبلي هذا العرض، أنسيتِ أنك ستكونين أمًّا في غضون شهور، ومولودك يحتاج إلى رعاية؟

قلت بابتسامة:

- لقد رتبت كل شيء مع أمي، ستتولاه أثناء تدريبي وعملي، إنه حلم عمري يا شريف، كيف لي أن أرفضه؟!

- رتبتِ كل شيء مع أمك دون استئذاني أو مشورتي! أصبح أمرًا طبيعيًّا أن أكون آخر من يعلم في هذا البيت، احذري، لست موافقًا يا نورا.

ثم تركني متجهًا إلى غرفة النوم، وهو يقول متهكمًا:

- أتريدين أن تصبحي أمًّا دون تقديم أي تنازلات؟

أحسست وقتها أنه ينتقم مني، وأني مجرد دمية بين يديه لا تملك من أمرها شيئًا، كان ذلك الشعور المقيت يراودني أحيانًا في الآونة الأخيرة، ولكن لم يكن أبدًا بهذه الحدَّة، يا له من شعور بغيض! ويا لها من مهانة! ما وراءك يا شريف؟ تدَّعي أن أمر ابننا يهمك إلى حد حرماني من حلمي، وتريد أن تقنعني أنه يأخذ حيزًا كبيرًا من تفكيرك، وأنت من أردت التخلص منه ذات يوم! هل تغار من عملي في فرقة ذاع صيتها في مصر بل وفي الشرق الأوسط كله؟





هـــو

سان فرانسيسكو، 2008

جلستُ وأصدقائي أمام حمام سباحة (سان جوز) بفندق فيرمونت الفاخر، كل ما حولي يضفي بهجة وسعادة على ناظريَّ، الجمال والذوق الرفيع كانا سمة المكان، وجلستْ على مقربة مني (جين ماكارثر) بملابس سباحة حمراء مثيرة، بل ساخنة، كانت غاية في الجمال والإغراء، ويبدو أنني رُقت لها، فلم تكفَّ عن الحديث معي عن أي شيء وكل شيء، ثم مالت عليَّ حتى تدلَّى شعرها الذهبي على صدري، وقالت همسًا:

- أدعوك إلى غرفتي الليلة.

سرت في جسدي رجفة غريبة، وسألت نفسي.. لِمَ لا أعيش مثلهم؟ أستمتع بحياتي قدر الإمكان، فالمثل الإنجليزي يقول: وأنت في روما افعل كما يفعل الرومان. أومأت برأسي موافقًا على الدعوة.

ودنا الليل، وخرجتُ من غرفتي، ولكني لم أتجه إلى غرفتها كما وعدتها، بل حزمت أمتعتي وغادرت الفندق بهدوء، ثم أخذت سيارتي الفاخرة واتجهت فورًا إلى منزلي، وأخذت أسأل نفسي..



ما قيمة أن أفوز بلحظات من المتعة إذا بعت قيمي ومبادئي وكل ما تربيت عليه في المقابل؟ وما قيمة حياتي كلها إذا خسرت نفسي؟ فالعلاقات الحميمة عندي تعبير عميق عما يحمله القلب من شوق ولوعة، هكذا عرفتها مع من أحببت، فذبت فيها عشقًا، وملأتُ منها وارتويت؛ لأن روحي عشقتها، وهِمْتُ بها، والروح بداخلنا هي التي تحرك أجسادنا وليس العكس، وإلا لأصبح شعورنا بالرغبة وما يتبعه من علاقات مجرد إحساس ميكانيكي رخيص، يُسقط ممارسيه في قاع المملكة الحيوانية.

عند وصولي منزلي، اعتذرت لدوجلاس؛ لانسحابي بهذه الطريقة، ثم اتصلت أيضًا بجين، وطلبت منها أن تتفهم طبعي كرجل شرقي يلتزم بتقاليده وتعاليم دينه، والغريب أنها تفهمت، بل واعتذرت لعدم درايتها بطبعي، وقالت إن موقفي زادني رجولة في نظرها، ثم أنهت المكالمة بطلبها أن نظل أصدقاء!

ظل كلامها يتردد داخلي، ربما لأني لم أكن أتوقع تفهمها السريع، عجيب شأن النساء!، دائمًا يفاجئنك بردود أفعال غير متوقعة.

تذكرت آخر زيارة لعمي مكرم في دار المسنين قبل أن أرحل، تحدثنا عن أمر النساء وأحوالهن.



القاهرة، 2003

جلسنا أنا وعمي في حديقة الدار، وكان يومًا مشمسًا في شتاء قارس، كان قد بدا عليَّ الهم إلى درجة أنه سألني:

- شريف، هل قمت بزيارتي آخر مرة منذ عشر سنين؟

قلت ضاحكًا:

- كيف تقول ذلك يا عمي، عشر سنوات؟! لقد قمت بزيارتك منذ حوالي شهر تقريبًا.

- اعذرني يا بني، الأيام عندي تشبه بعضها، وأصبحت لا أستطيع تدارك عدِّها، لكن عند رؤيتك اليوم شعرت أنك كبرت عشر سنين عن آخر مرة زرتني فيها.

قلت بأسًى:

- من الهم يا عمي.

- حقًّا يا بني، يشيخ المرء من الهم وليس بمرور الزمن، ألا ترغب أن تشكو لعمك مكرم أحوالك؟

- لا أريد إزعاجك.

- أحيانًا نستريح عندما نفضفض وننفس عن أنفسنا، قل لي يا بني ما الذي أصابك؟



انتهزت فرصة أن هناك من يريد أن يسمعني، وفوق هذا أن حالة عمي مكرم متزنة، وتسمح بذلك، وكان هذا نادرًا، فأسرعت قائلًا:

- أتخبط يا عمي، حتى الصدر الحنون الذي اعتقدت أن يكون سندًا لي، خذلني.. أصبحت تشعرني أني صغير في نظرها منذ أن داهمتني المشاكل في عملي، يبدو لي يا عم مكرم أن نساء العالم سواسية، المرأة تخلص لزوجها ما دام مستقرًا في عمله، يلبي لها طلباتها، لكن إذا تبدلت ظروفه تبدلت هي، وقد تبرد مشاعرها إلى حد الانتهاء، وأنت أعلم مني، لقد تجرعت من نفس الكأس.

شرد عمي مكرم للحظات، وخشيت أن تعود إليه حالة الهذيان، ولكنه بادرني بقوله:

- لقد نسيت مَن زوجتك يا شريف.

حمدت ربي أنه لا يزال على حالته، وقلت:

- نورا يا عمي، نورا، هل تتذكرها؟ عازفة البيانو التي أحيت حفلات عديدة في الدار.

قاطعني عمي مكرم، قائلًا:

- لا يا شريف، أصابعك ليست مثل بعضها، ونورا ليست بأي حال من الأحوال مثل زوجتي، هل ما زلت تحبها؟



لم أرد عليه؛ لأنه ببساطة فاجأني بسؤاله، فقال:

- لستَ مضطرًّا لإجابتي، ولكن يجب أن تواجه نفسك بمشاعرك تجاهها، ثم أخبرها بحبك إذا كان باقيًا، النساء نوعان: نوع طيب تأسرهن بكلمة طيبة، ونوع خبيث لا يملأ أعينهن إلا التراب، ونورا من النوع الأول، صدقني.

الفصل السادس

هـــي

القاهرة، 2008

كنت عائدة إلى منزلي بالدقي من تدريب مكثف مع الفرقة، وبمجرد أن أوقفت المصعد في الدور الثالث، سمعت صوت أمي وأخي يدوي خارج المنزل، وبدا لي أنهما يتنازعان، فأخرجت مفاتيحي من حقيبتي ودخلت مسرعة، وجدت أمي تصرخ:

- لا أتحمل رؤية لحيتك القبيحة أكثر من ذلك، لابد أن تحلقها.

عند دخولي، قلت بقلق:

- ما خطبكما؟، صوتكما مسموعٌ من خارج المنزل.

نظر إليَّ حسام، وكأنه وجد طوق نجاة قائلًا:

- تعالي يا نورا، وكوني حكمًا منصفًا بيننا.

قالت أمي بضيق:

- أيعجبك أخوك بهذا الشكل؟ وكأنه من أهل الكهف!



قال أخي:

– وما خطب أهل الكهف؟ ليتني أكون مثلهم حتى يرضى الله عني.

قالت أمي:

– لقد سئمت المجادلة، فإن لم تحلقها، لن تكون ابني بعد اليوم.

قلت لأمي بابتسامة:

– حلمك عليه يا أماه، فذقنه ليست بهذا السوء، بل بالعكس إنها تزيده وسامة.

قالت أمي بأسًى:

– هذه عادتك، لاتنصفينني أبدًا.

قال حسام، وهو يضع يده على كتفي:

– لأنها تنصف الحق.

قالت أمي:

– لا فائدة منكما، فأملي في هذا البيت هو قرة عيني حمزة.

قال حسام ضاحكًا:

– حسنًا، عندما يصبح حمزة في مثل سني، اجعليه يحلق ذقنه كيفما شئتِ.



تأملت كلام حسام وتساءلت، هل يمكن رؤية حمزة في هذا العمر؟، يا له من حلم جميل! ليته يتحقق، تنبهت إلى رنين الهاتف، التقطت أمي السماعة، وفي لحظة قالت لي:

- نورا، إيهاب بك ينتظرك على الهاتف.

التقطت السماعة من أمي، سمعت صوته مبتهجًا، وهو يقول:

- نورا، لقد فزت بصفقة عمري اليوم، وأود أن أحتفل معك أنت وأمك وأخيك بهذه المناسبة، فأنتم الآن عائلتي.

أدهشني كلامه، إذ جعلنا عائلة واحدة دون أن أعطيه ردًّا قاطعًا على عرضه لي بالزواج، هذا طبع إيهاب، بارع في المراوغة حتى يحصل على ما يريد، ولكن.. لابد أن يعلم أن هناك أمورًا استجدت في حياتي، لابد أن أنقل إليه ما حدث لحمزة من هبوط في القلب، وما قاله لي الطبيب، فقلت:

- مبروك يا إيهاب، يسعدني مقابلتك، فهناك ما يجب أن نتباحث فيه معًا.

- إذًا، سأمر عليك يوم الخميس القادم، الساعة التاسعة مساء، سنذهب إلى فندق الفور سيزونز، وإن لم يرق لك المكان يا حبيبتي ورغبت في الذهاب إلى مكان آخر، فلا بأس.

أحقًّا قال حبيبتي! هذا يفوق الاحتمال، فهو في كل لحظة يكسب أرضًا، لابد أن أنهي المكالمة قبل أن أجد نفسي زوجة في بيته بعد دقائق.



- أشكرك يا إيهاب، نتقابل في الموعد المحدد إن شاء الله، ولكن لا أعتقد أن أمي ستأتي معنا، عليها أن ترعى حمزة في البيت أثناء غيابي.

- هاتي أمك وحمزة معك، ستكون فرصة طيبة كي أتقرب إلى ابنك.

- لقد اعتاد ابني أن ينام مبكرًا، فحالته لا تسمح بالسهر.

سعدت أمي بدعوة إيهاب على العشاء، على الرغم من أنها لم تحسم أمرها من زواجي منه بعد ما سمعته من الطبيب، ولكن كنت أشعر أنها وجدت في إيهاب كل ما تحلم به من زوجٍ لي، فهو رجل مقتدر، لبق، يعرف كيف يبهرها بكلامه ويعطيها الأمان الذي ترجوه.

والتقيته في الموعد المحدد في مطعمٍ متواضع نسبيًّا؛ لأنه كان من اختياري، وصاحبني حسام الذي لم يرقَ له إيهاب منذ أول وهلة، وطلب لنا إيهاب عشاءً ببذخ وسفاهة، ثم أطلعته على دخول حمزة العناية المركزة، وما قاله د. عبد اللطيف بخصوص حالته، وفرصته في الشفاء الكامل إذا عدت لأبيه، فقال بغضب بالغ:

- لا يعقل أن تفكري في العودة بعد كل ما لاقيته، لقد رفضتِ تلك الحياة من قبل.

قلت بعين دامعة:



- أنا أمٌّ.

قال إيهاب بحدة:

- أتدمرين نفسك لأنك أم؟! ما هذا السخف؟

ثم رمق حسام بنظرة رجاء، قائلًا:

- ألا توافقني يا حسام؟

قال حسام بتهكم:

- هذا كلام الطبيب، لا تعديل فيه.

رد إيهاب متجاهلًا لهجة حسام الحادة:

- لكن كلام الطبيب غير منطقي بالمرة، فزراعة النخاع من الأغراب شائعة للغاية.

- حالة ابني حمزة مختلفة، لقد حاول الدكتور عامر- الذي يتابع معه - أن يعثر على تطابق أنسجة في بنوك خلايا الدم في الخارج، لكن مع الأسف لم يكن ذلك متوافرًا.

- كيف؟ إنه أمر مستحيل، زراعة النخاع من الأغراب لا تتوقف ليل نهار، لا.. لا، يبدو أنكم تتعاملون مع أطباء فشلة، ذاع صيتهم بضربة حظ.

قال حسام باستنكار:



- ضربة حظ!! بالمناسبة.. دكتور عامر عبد الرحيم، ودكتور عبد اللطيف مندور من أمهر الأطباء في البلد.

قاطعه إيهاب قائلًا:

- أي بلد تتحدث عنه؟ الطب في مصر أصبح سيئًا للغاية، الطبيب منهم يهذي بكلام لا يفهمه، من الأفضل أن ترسلي إليّ تحاليل حمزة، وسوف أعرضها على أحسن أطباء في أوروبا وأمريكا، وأنا متأكد أنهم سوف يكون لهم رأيٌ آخر.

لم يتورع أن يمسك يدي أمام أخي، وهو يقول:

- حبيبتي، عاهديني على عدم القيام بأي شيء يؤذيك، فنحن نحيا مرة واحدة، فمن العبث أن تعيدي مأساتك مرة أخرى.

ثم نظر إيهاب إلى حسام وقال له بصيغة أمر، وكأنه من موظفيه:

- حسام، مُر عليَّ في مكتبي غدًا بكل التحاليل والأشعات التي تخص حمزة، وسوف أعمل ما ينبغي عمله.

ثم رمقني بنظرة ثقة، وهو يقول:

- من الآن وصاعدًا لا أريدك أن تحملي أي هم لمصاريف علاج حمزة، سوف أتكفل به من الألف إلى الياء، وسوف يكمل علاجه في أحسن مكان في العالم.



نظرت إليه وأنا أتأمله، ترى هل يهمه أمر حمزة كما يدعي، أم أن كل غايته هي الفوز بي، حتى ولو على حساب حمزة؟

لم أسلم من توبيخ أخي حسام لي أثناء العودة، بل وصل تجريحه إلى حد أنه قال:

- كيف سمحتِ له أن يمسك يدك بهذه الطريقة؟ هل ليتمم على بضاعته؟ أجده يبيع ويشتري فيك يا أختاه.

صِحت، والدموع تترقرق في عيني:

- هل جننت يا حسام؟ أنسيت فرق السن الذي بيننا؟ كيف تكلمني بهذه اللهجة؟!

- أنا آسف يا نورا، يعلم الله أني لم أكن أقصد مضايقتك، وإنما أنا قلق عليك للغاية، وبصراحة لست مطمئنًّا لهذا الرجل الذي يُدعى إيهاب شكري على الإطلاق.

بعد أن عدنا إلى المنزل، دخلت حجرة حمزة بهدوء، جلست بجانبه وأخذت أتأمله وهو يحتضن دميته المفضلة أثناء نومه، لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء، قد أراحني أن أشتكي لابني وإن لم يسمع شكواي. كم جرحني أخي وآلمني! ولكن على الرغم من قسوته أظن أنه محقٌّ.. يا إلهي ما عساي أن أفعل؟ أشعر أني تائهة، ضائعة، حائرة،



واقفة على أرض رخوة، لا أستطيع أن أخطو خطوة؛ خشية السقوط، استيقظ ابني على صوت نحيبي، فقام وهو يفرك عينيه:

- أمي، مابك؟ هل رأيتِ وحشًا في منامك؟

قلت، وأنا أجفف دموعي:

- أجل يا بني.

- تعالي ونامي معي أنا ودبدوبي، واطمئني بنا ولا تخافي.

مددت نفسي في فراشه، وأخذته في حضني حتى استغرق في النوم مرة أخرى، وبعدها قبَّلته على جبينه واطمأننت عليه، ثم دخلت حجرتي بهدوء وخلعت ملابسي، دخلت عليَّ أمي لتسأل عن أخباري مع إيهاب، فحكيت لها - باقتضاب - الحديث الذي دار بيننا، فأضاء وجهها من الفرح، وقالت:

- أشعر أن الفرج أصبح قريبًا، وسوف يأتي على يد إيهاب، إن شاء الله سنوفق في علاج حمزة في الخارج، الفرق كبير يا ابنتي بين العلاج هنا والخارج، ثم إني أرى أن إيهاب أفضل كثيرًا من شريف. لا يوجد وجه للمقارنة، على رأي إيهاب، هل يعقل أن نعيد مأساتنا مرة أخرى؟

- أمي، إذا سمحتِ لا أستطيع التحدث الآن، اتركيني لأنام، ولنكمل حديثنا غدًا.



تركتني أمي أترجى النوم، ولكنه جفا عينيَّ، بت أتقلب في فراشي، ربما يحق لشريف أن يتخذ معي القرار ما دام الأمر يخص ولده، ولكن أي حق بعد أن هجرنا؟ لا. ليس له أي حق عندي، فقد توسلت إليه ألا يرحل، ولكنه أبَي واختار الفراق بقلب متحجر عنيد، لا أريد أن أتذكر لحظة لم أُشفَ منها حتى اليوم، ولكن يبدو أن الذكريات تداهمني رغمًا عني.

القاهرة، 2004

في مساء الليلة التي سبقت رحيل شريف، أخذت أتمعن في ملامح رضيعي البريئة وهو نائم على ركبتي، كم أشفقت عليه! مسكين أنت يا ولدي. ستفقد أباك وهو على قيد الحياة، ثم تساءلت لِمَ وصلنا أنا وأبوه إلى طريق مسدود؟ ومن المسئول؟ وكيف لهذا الحب الذي أضاء حياتي أن تنطفئ شعلته عند أول ريح عاصف؟ واندهشت لعدم نفاد رصيد شريف عندي كما ظننت، بل وجدته عاد وامتلأ من جديد، تذكرت أيامنا الأولى حينما كان يمر عليَّ أثناء تدريبي، فكنت أهيم في عينيه لأعزف بكل جوارحي وأحاسيسي، تذكرت كيف كانت تتسارع دقات قلبي وتشتد حتى خشيت منها أن تتوقف كلما رأيت خياله، أو حتى من يشبهه، ثم تذكرت مؤازرته لي وحنانه عليَّ واهتمامه بي، كان يحتويني وبهدوء رزين، ورؤية ثاقبة، يزيل مخاوفي وهمومي، تذكرت



حينما كنا نذهب إلى دار المسنين؛ لنخفف معًا معاناة ساكنيه، فنزداد قربًا، وجال بخاطري أيضًا كم لعبنا ولهونا، وملأت ضحكاتنا الدنيا مرحًا وسعادة، تذكرت رعشة يدي في يديه، وارتجاف شفتي، أحقًّا سيغادر غدًا! وبلا عودة؟ أأستطيع العيش بدونه؟ ما أظن ذلك. لابد أن أخطو على جراحي، وأنقذ مايمكن إنقاذه.

واستيقظت مبكرةً في اليوم التالي، اتصلت بمحمول شريف عدة مرات فلم يجب، أرسلت إليه رسالة، كتبت فيها بدموع عيني:

"سأرحل معك".

وجاءني الرد في لحظة:

"فات الأوان".

فكتبت، بعد أن وضعت ولأول مرة اشتياقي فوق كرامتي:

"ما زلت أحبك".

جاءني الرد:

"وفات أوان ذلك أيضًا".





هــو

سان فرانسيسكو، 2008

كنت في مكتبي بالمركز الرئيسي لشركة (براندينج) التي أعمل بها، مشغول في تعديل تصميم شِعارٍ لأحد عملائنا، ثم رن هاتف مكتبي، بعد أن التقطت السماعة سمعت صوت شريكي بيترمبتهجًا وهو يقول:

- شريف، تعالَ إلى مكتبي حالًا لو سمحت.

- هل هناك أي جديد؟

- تعالَ لتعرف.

- حسنًا.

كانت ليندا وقتها تجلس في المقعد المقابل في مكتبي، تنتظر تعديل الشِعار، رمقتني بنظرة بها فضول غريب، ثم قالت:

- ماذا يريد (بيت) منك؟

قلت وأنا أهم بالخروج من المكتب.

- كيف لي أن أعرف؟

ذهبتُ إلى مكتب بيتر، ولدهشتي وجدت جين ماكارثر تجلس على



المقعد المقابل له، وكانت في غاية الأناقة، ابتسمتْ ابتسامة ساحرة عندما لاحظت دهشتي، أما بيتر فأشار إلى المقعد المجاور لها قائلاً:

- اجلس معنا يا شريف. أود أن أعرفك بميس ماكارثر صاحبة شركة (ماكارثر ديزاينز)، من الشركات الرائدة في مجال تصميم الأزياء.

ازدادت دهشتي أضعافًا؛ لأنه على الرغم من حديثنا السابق أمام حمام السباحة، والذي استمر ساعات من جانبها؛ لم تقل لي شيئًا عن عملها، قلت - بابتسامة صغيرة:

- أهلًا وسهلًا جين..

أردف بيتر قائلًا:

- يبدو أنك تعرف ميس ماكارثر؛ لأنها أيضًا طلبت مني أن تكون أنت من يتولى دعاية حملتها الجديدة لأزيائها للموسم القادم من الألف إلى الياء، وأنا رحبت باقتراحها؛ لأني أدرك قدراتك.

لم يكن بوسعي إلا أن أقول:

- كما ترى (بيت)

عدت إلى مكتبي بعد أن اتفقنا على الخطوط العريضة للحملة، ولم ترحمني ليندا إذ جاءت إلى مكتبي بحجة الاستفسار عن تفاصيل ساذجة في أعمال لا داعي لها ، ثم انهالت عليَّ بأسئلتها عن سبب



الاجتماع المغلق المفاجئ مع بيتر، وكيف صار وعن هوية الزائرة، وأخيرًا توقفتْ عندما دق محمولي، وعندما فتحته سمعت صوت جين ماكارثر، وهي تقول:

- شريف.. أظن إنك سوف تقبل دعوتي على العشاء هذه المرة.. عشاء عمل طبعًا في مطعم (بينيو)، متخصص في الطعام الصيني (التشاينيز فودز)، وهو مطعم أكثر من رائع، سأنتظرك هناك الساعة السابعة والنصف، لا تتأخر.

- سأكون في الموعد.

وهل كان لي أن أرفض؟ ذهبتُ في الموعد، وجاءت بأناقة مبهرة، ولكن لم أحرك ساكنًا في وجود أجمل سيدات سان فرانسيسكو، ما زلت أشعر بتلك البرودة والخواء اللذين لازماني منذ أن غادرت وطني، تعجبت أنها لم تطلب أي خمور، بل اكتفت بالمشروبات الطازجة، وبعد أن تناولنا عشاءً فاخرًا، وتحدثنا عن أمور حملتها، رمقتني بنظرة طويلة، ثم قالت:

- تحدثنا عن العمل بما يكفي، حدثني عن نفسك.

قلت:

- لا يوجد شيء ممتع أحكيه لك، عملي كل حياتي.



- أتريد أن تقنعني أنه ليس بحياتك امرأة؟

ابتسمت قائلًا:

- نعم.

- ولا حتى في الماضي؟

لزمت الصمت، وتساءلت في نفسي: لِم هذا التطفل؟ ولِمَ تريد أن تقتحم أعماق نفسي؟ فقالت بعد وهلة:

- لِمَ لا تطلعني على سرك؟ ألا تعتبرني من أصدقائك؟

ترددت للحظات، ولكني لم أعد أقوى على مواراة جرحي الذي دفنته حيًّا بين جنبيّ، فقلت لها:

- لقد انتهت قصتي مثل أي قصة.

- لا أظن أنها قد انتهت.

فقلت بتعجب:

- لم تقولين هذا؟

- بدليل أنك لا تريد الدخول في علاقة جديدة.

- ربما أخشى أن أجرح ثانية.

- هذا دليل صريح على بقائها في قلبك، لكني قبلت التحدي.



تحدثنا بعدها عن أمور مختلفة، ولكن كنت معها جسدًا بلا روح، فقد هامت روحي بعيدًا.. في أغوار الماضي، تذكرت آخر حديث دار بيني وبين حبيبتي، أقصد آخر نزاع نشب بين غريبين، فلم أعد أنا شريف، ولم تعد هي نورا.

القاهرة، 2004

أصبح كل منا لا يشبه الآخر، بل وينتظر من الآخر أن يضع كلمة النهاية.

قالت نورا بضيق:

- لا أفهم سبب تصميمك على سفرنا المفاجئ يا شريف؟ قلت لك مائة مرة لا أستطيع السفر وابني رضيع في مهده، ثم كيف أرفض عرض حسن البحيري؟

- آه، لقد ظهرت نواياك، كل ما يهمك في الأمر هو نفسك ومجدك الشخصي، حسن البحيري وعرضه السخي والعظيم، لكن مستقبل زوجك لا يعنيك البتة.

- المستقبل بيد الله، ولكن لا أستوعب أن مجرد خلاف مع عمك يدفعك إلى الهجرة! حقيقةً لا أستطيع أن أفهمك.

- لقد سئمت الحديث في هذا الموضوع، لقد تحدثنا ما فيه الكفاية دون أدنى فائدة.



- ولكني لست مقتنعة إلى الآن، لِمَ يتوجَّب عليّ أن أضحي؟ ألأنك لا تستطيع تحمل خلاف مع عمك؟ فالناس يتعاركون ويتصافون كل يوم، لكن لا أحد يغادر البلد من جراء سوء تفاهم أو نزاع، لِمَ نترك أهلنا وأصدقاءنا وأحلامنا؟

- نورا، لا فائدة من الحديث. سأسافر، هل ستأتين معي؟

أظهرت تعبيرات وجهها اشمئزازًا مميتًا لم أره من قبل، ثم قالت بعين دامعة:

- هل تظن أنك قوي باستبدادك وعِندك وتحكم رأيك؟ بالعكس، فأنت في عيني في غاية الضعف.

تنطلق بعض كلماتنا كالقذائف، إذا أطلقتها تنفذ دون رجعة، وتقتل دون رحمة أو هوادة، لا أستطيع أن أصف أنيني المخنوق في حلقي بعد سماعي إياها، فقد طعنت رجولتي وكرامتي بسهمٍ واحدٍ، نورا حلم عمري الذي ضاع، لم تعد أحضاني تحميكِ، ولا كلماتي تواسيكِ، ولم أعد فارسًا لأحلامك، أدري لقد انتهينا، فكرة الرحيل بدونك أصبحت لا تزعجني، وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها!

الفصل السابع

هـــي

القاهرة، 2008

كنت مع أمي في النادي لترفيه وتسلية طفلي، وكنا قد أخذنا مجلسنا على مقربة منه في حديقة الأطفال، أما قرة عيني فكان قد بدا عليه الإعياء؛ لاقتراب موعد نقل الدم إليه، فاكتفى بالجلوس على العشب وهو يتابع الأطفال بعينيه، يضحك لضحكاتهم، وأحيانًا يشدو لهم، وهم يلهون ويقفزون من حوله، عجبتُ له، كيف يمتلك قلبه الصغير كلَّ هذا الرضا والصبر! وبدا لي أنَّ توكله على الله يفوق الكبار، سبحان الله.. فطرة الصغار تنضح بالإيمان؛ لأنها مازالت نقية، لم تتلوث بعد، ثم رن محمولي، وجاء صوت إيهاب ليزف إليَّ خبرًا:

- ألم أقل لكِ إن الطب في مصر سيء للغاية، لقد جاءتني عدة ردود من عددٍ لا بأس به من المراكز الطبية التي راسلتها في أمريكا وألمانيا بخصوص حالة حمزة.

قلت بلهفة:



- ماذا قالوا يا إيهاب؟ أخبرني بسرعة.

- لقد أكدوا إمكانية الزرع من الأم أو الأب، حتمية الزرع من الحبل السري عفى عليها الزمان، لابد أن نتزوج، ونسافر لإجراء العملية في أقرب وقت.

قلت بتعجب:

- هل يمكن أن ترسل إليّ هذه الردود؛ حتى أعرضها على دكتور عامر؟

- ولِم نأخذ رأي دكتور عامر؟ الأطباء هنا كالأنعام أو أضل سبيلًا، يا نورا، اسمعي مني المفيد، ليس لدينا وقت كي نضيعه، فالوقت ليس في صالح ابننا.

أنهيت المكالمة بهذا الخبر، كنت أعلم أنه بارع في كسب من يحاوره برأيه، ولكن لم أكن أتصور أن يصل تفوقه إلى هذا الحد، إذ وضع زواجنا شرطًا لعلاج حمزة، كم كرهت هذه الفكرة، ثم تساءلت: هل من الممكن أن يكون مستوى أطبائنا في مصر بهذا السوء، حتى النابغين منهم. أسئلة كثيرة دارت في رأسي حتى سألتني أمي عن مغزى المكالمة، وعندما قصصتُها لها، قالت:

- أخيرًا، انتهت المشكلة.



قلت باستنكار:

- لم تنتهِ بعد يا أمي، لقد امتنع عن إرسال ردود المراكز الطبية في الخارج إليَّ، ولم يفصح أيضًا عن أسمائها؛ كي أطمئن بنفسي.

- وهل سيكذب علينا يا ابنتي؟!

- ليس كذبًا، لكنه في النهاية ليس طبيبًا، فربما اختلط عليه الأمر، ولم يستوعب تمامًا تعليقات أطباء الخارج.

- كفاك يا نورا. لا أريد أن تكون فكرة الاتصال بشريف واردة.

قلت لأمي بدهشة:

- لم أكن أعلم أنك تكرهين شريف إلى هذا الحد.

- بل كنت أحبه كثيرًا، ولكن شعوري نحوه تغير بعد أن هجرك أنت وابنه، ثم هل تعتقدين يا نورا أن شابًّا مثل شريف سيظل دون ارتباط طيلة أربع سنوات، أيعقل أن يعيش دون امرأة حتى الآن؟ وإذا عُدتِ إليه، هل تقبلين أن تشاركك فيه أخرى؟

نزل عليَّ ظن أمي كالصاعقة، كيف لم أفكر في هذا الأمر من قبل؟ مزقتني الغيرة إربًا، شعور كريه لا يوصف، ولكن لماذا أهتم به إلى هذا الحد؟ هل لا يزال قلبي ينبض بحبه؟أنسيت جرحي ودموعي التي لم تجف بعد، وليالي الحرمان الطويلة، ودقات الساعات التي لم تكن تتوقف للفجر؟



أنسيت عذابي معه، وجموده وقسوته إلى حد أنه كره أن يكون له مني ولد؟ امتزج عندي شعور الحب بالكراهية، وما عدت أفهم ما أريد.

وجاء الموعد الشهري لنقل الدم لحمزة، فصاحبته إلى المستشفى التي اعتدنا على نقل الدم فيها؛ حيث يعمل بها الدكتور عامر، الطبيب الذي يتابع حالة ابني منذ البداية، وكان حمزة شبه نائمٍ، مستسلمًا كعادته لأجهزة نقل الدم في إحدى غرف المستشفى، وبعد أن مرَّ دكتور عامر على ابني، وجدتها فرصة طيبة لأتحدث معه على ما نقله إليَّ إيهاب من أخبار في آخر مكالمة، وحينها قال دكتور عامر:

- قريبك محق في كلامه، ولكنه لم يخرج إلى حيز التنفيذ بعد.

- ماذا تعني يا دكتور؟

للأسف جاء للدكتور عامر استدعاء لمريض آخر، فاتجه خارج الغرفة معتذرًا، خرجت وراءه وأعِدتُ عليه السؤال ثانية:

- ماذا تعني عندما قلت إن كلامه لم يخرج إلى حيز التنفيذ بعد؟

قال، وهو على عجلة من أمره:

- كلها تجارب ودراسات، ونتمنى أنها تُثمر عن قريب إن شاء الله.

تابعته بخطوات واسعة، وأنا أسأله:

- متى يا دكتور؟



- لا أحد يستطيع أن يدرك الغيب يا مدام.

علمت أن المقابلة على وشك الانتهاء، فسألته سؤالًا يَجُبُّ كل ما قبله:

- ما هي أفضل طريقة لعلاج ابني؟

قال، وهو يبتعد:

- كما نفعل الآن، نقل الدم على الرغم من مخاطره هو الحل الوحيد أمامنا، مادام أبوه غائبًا!

***

هــو

سان فرانسيسكو، 2008

أخذت مجلسي بين الموظفين المختصين في قاعة الاجتماع بالمركز الرئيسي لشركة (براندينج)، وكنا نناقش يومها الحملة الدعائية التي سنقوم بها لميس ماكارثر، كان شريكي بيتر كعادته يستمع بإصغاء إلى آرائنا، ثم قالت ليندا:



- أقترح أن نختار عارضة أزياء (موديل) مثيرة جدًّا، نلتقط لها صورًا ساخنة، وبالطبع تكون مرتدية زِيًّا مثيرًا من أزياء ماكارثر، ويحوم حولها رجال مفتولو العضلات، ونقول مثلًا: البسي ماكارثر، وانظري الفرق.

قلت معترضًا:

- فكرة مبتذلة، صُمِّمت ونُفِّذت مائة مرة، هذا فضلًا عن أننا سوف نحدد بهذه الطريقة أزياء ماكرثر في الإغراء، والحقيقة مخالفة لذلك، ماكرثر لديها العديد من الموديلات المتنوعة ولكل مناسبة.

قال جيم زميلنا:

- لو اخترنا أي موديل، مهما ارتدت من أزياء، ومهما غيرنا من أماكن التصوير والبوزات، سيعد ذلك تقييدًا لموديلات ماكارثر.

قلت بحماس:

- لذلك أجد من الضروري تغيير طريقة التفكير هذه، يجب أن نتفاعل مع الناس، إما أن نعد مسابقة وندعو أرقى بيوت الأزياء للاشتراك فيها، أو نعد دورات تعليمية؛ لتعليم السيدات كيف تخترن الملابس التي تليق بكل مناسبة مع مراعاة اختلاف أحجامهن وألوانهن، أو نعلن بالتبرع بنسبة مئوية من الربح إلى الجمعيات الخيرية، وبهذا يتعاطف الكثير مع أزياء ماكرثر.



صاح بيتر:

- حقًّا، دماغ شريف عز الدين يساوي الكثير.

عدت إلى مكتبي، منتشيًا لما سمعته من ثناء وإطراء من كل حاضري الاجتماع، إلا ليندا التي تبعتني كعادتها لتحاول استفزازي.

- لِم يختارك أنت بالذات؛ لتكون مسئولًا عن حملة دعاية ماكرثر؟ هل يصح أن تفوز بما لا تستحقه لمجرد أن لك حصة من الأسهم؟!

- موتوا بغيظكم.

- ماذا قلت؟

قلت ببرود:

- فلتشتكِ (بيت)، غيِّري نظام الشركة لو استطعتِ.

لم أعطها فرصة أخرى للمجادلة، جلست على مكتبي متجاهلًا إياها، وفتحت جهاز الكمبيوتر أقرأ عليه رسائلي الإلكترونية واحدة تلو الأخرى، أما هي فخرجت من مكتبي يائسة.

بعد عدة دقائق استوقفتني رسالة تحمل عبق الماضي، قرأت اسم المرسِل أكثر من مرة لأتأكد من حروف اسمه، وعندما تأكدت أن المرسِل حسام حامد أخا نورا، فتحتها على عجل، وقرأت ما بها بفضول وتأنٍّ، وقد كتب فيها الآتي:



شريف،

أكاد أرى الدهشة تطل من عينيك حين قرأت اسم كاتب هذه الرسالة، أجل. أخوك حسام يكتب إليك، يعلم الله أني اتخذتك أخًا كريمًا منذ اليوم الأول، وسأظل أحمل لك في قلبي كل مودة واحترام.

أخي الحبيب، على الرغم من انقطاعنا عن التواصل أعوامًا طوالًا، وعلى الرغم مما آلت إليه الأمور من سوء، وما قاسيته أنت ونورا من جرح وألم وحرمان، وسَيْر كل منكما في طريقه، لم أتردد لحظة في أن أكتب إليك.

لقد أبى ضميري إلا أن أنبئك بأحوال قرة عيني وبهجة قلبي، ابنك حمزة. لقد عرفنا إصابته بفقر دم مزمن بعد أن غادرت البلاد مباشرة، فابنك مريض بثلاثيميا، أي نقص في كريات الدم الحمراء، يتطلب علاجه عمليات نقل دم متكررة، ربما كل بضعة أسابيع، و قدعرفنا من طبيبه المختص أن لديه فرصة للشفاء الكامل إذا زرعنا خلايا جذعية من دم مأخوذ من الحبل السري الناتح عن ولادة أخ شقيق له، منذ أسابيع كدنا نفقده بسبب هبوط حاد في القلب؛ لعدم نقل الدم له في وقته، أدركنا وقتها خطورة الموقف.

شريف، أضع حالة ابنك بين يديك، وفي كل الأحوال أرجو أن يهديك الله إلى الأصوب، وأتمنى ألا تغضب لإخفاء أختي عنك حالة

حمزة طوال هذه الأعوام، ربما يشفع لها عندك سنوات العذاب التي قضتها في بعدها عنك،

أخوك حسام.

قرأت الرسالة مرات ومرات، هل يمكنني ألا أغضب كما طلب مني حسام؟ كيف أجهل تمامًا ما يعانيه ابني من مرض؟ ربما أكون قد أخطأت حين منعتني كرامتي من التواصل معها للاطمئنان على البذرة التي طرحت بيننا، ولكن هي أيضًا تُلام، كيف أخفت عني كل هذه المعاناة؟ ألهذا الحد سكن النفور قلبك يا نورا؟!

لم أستطع المكث في الشركة، اعتذرت وهرعت مسرعًا إلى بيتي ألوذ فيه ببعض السكينة، ولكن أين السكينة مني؟ فقد جن جنوني، ماذا عليّ أن أفعل؟ ربما يجب ترتيب أولوياتي من جديد، هل أسافر إلى مصر على الرغم من العواقب؟ جلست على مقعدي الهزاز في غرفة المعيشة لأستجمع شتات نفسي. كانت الستائر المنسدلة ترسل ضوءًا خافتًا متماشيًا مع ما أحسسته من غموض وكآبة، تذكرت حينها آخر مقابلة دارت بيني وبين عمي.

القاهرة، 2004

استدعاني عمي عن طريق السكرتيرة كعادته مؤخرًا، فقد امتنع عن الاتصال بي نهائيًّا عبر الهاتف، وعندما دخلتُ حجرته وجدته في حالة هياج هستيري، فلا أتذكر أني شاهدته بهذا الشكل من قبل، أخفيت عنه



ما شعرت به من قلق وخوف عند رؤيته بهذه الحالة، وبعد أن أغلقتُ الباب خلفي كما طلب مني، قال وهو يُخرج مستندًا رسميًّا للشركة من أحد أدراج مكتبه:

- توقيع من هذا يا شريف؟

شعرت بتوتر بالغ عندما وقعت عيناي على الوثيقة التي في يده، فقلت برعشة أكاد أخفيها:

- توقيعك يا عمي.

فقال عمي ساخطًا، وهو يضع المستند في عيني:

- توقيعي أم توقيعك أنت! لقد أبلغتني رباب سكرتيرتك بكل شيء.

لم أنبس ببنة شفة من هول المفاجأة، أما هو فاسترسل في توبيخه قائلًا:

- هل تعلم ما اسم فعلتك هذه؟ اختلاس.. هل تدري عقوبته؟ بالإضافة إلى الفضيحة التي ستلاحقك مدى حياتك؟

قاطعته؛ حينما تمكن الغضب مني محل الخوف قائلًا:

- وماذا عن فعلتك أنت مع أبي؟ لقد نهبته بحيلة قذرة، كان يجب أن أرد جزءًا من حقي بنفس سلاحك!



صاح قائلًا:

- هل عدت لهذيانك القديم؟ ليس لك أي حق عندي! هل هذا جزائي بعد أن قمت بتربيتك وتعليمك طوال السنوات الماضية؟

- لقد أعطيتك أيضًا الكثير، كبَّرت معك الشركة، وعملت معك بمنتهى الإخلاص؛ حتى أصبحت شركتك من أكبر شركات الدعاية في البلد، كنت كل يوم أصبّر نفسي وأقول: سيستيقظ ضميرك في يوم ما، وتعيد إليَّ حقي الذي نهبته، لكن الظلم الذي أذقتني في الفترة الأخيرة جعلني أفيق من هذه الأحلام الوردية.

صفق عمي باستفزاز، وهو يقول:

- برافو، واضح أنك تحفظ كلام امرأتك الآلاتية عن ظهر قلب! هذا هو الذي طرأ عليك في الفترة الأخيرة.

اشتعلت في قلبي نار الغيظ والغضب؛ فور كلماته عنها بهذه اللهجة، فقلت بحدة:

- إياك أن تتحدث عنها بهذه النبرة. واعلم أنها ليس لها أي دخل بالموضوع، ولا تعرف عنه شيئًا.

صمت عمي للحظة وكأنه يفكر مليًّا في أمر ما، ثم قال:

- انتهى الأمر يا شريف. لن تستمر معي؛ لأني عجزت عن أن أنظف رأسك من أكوام القمامة التي تراكمت فيه، وبصراحة.. لم أعد أثق فيك،



كان يمكنني أن أقدم تلك المستندات للمباحث والتحقيق يأخذ مجراه، ولكني سأضع في الاعتبار صلة الدم والقرابة، لكن بشرط..

نظرت إليه وقد علمت أن المعركة قد حُسمت لصالحه، و بدا لي أن المعارك لا تحسم لصالح صاحب الحق وإنما تحسم لصالح الأقوى، وقد استمد عمي قوته من ولاء موظفيه له وخيانتهم إيايَ.

قلت له مستفهمًا:

- ما هو هذا الشرط؟

- ألا تغادر الشركة فحسب، بل تغادر البلد بأكمله، تأخد البنت الآلاتية ولا أراكما في هذا البلد مرة أخرى، وإذا لم تدبر حالك في خلال شهر واحد، وهاجرت إلى أي مكان في العالم، فلا تلمني على الإجراءات التي سوف أتخذها ضدك!

لم يكن لي بد من أن أرحل، وانتظرتُ من نورا أن تأتي معي دون أن تفهم السبب الحقيقي وراء رحيلنا، هكذا تفعل الزوجات المحبات، فمكانهن في أحضان أزواجهن أينما كانوا. يعلم الله كم حاولت أن أبوح لها بالحقيقة كاملة، ولكن لم أستطع، ربما لجفائها في الفترة الأخيرة، وذلك السد المنيع الذي وضعته بيننا وازداد علوًّا مع الأيام، وربما لأني كنت لا أجرؤ على مصارحتها، فكنت أشعر بخزي فيما اقترفته، على الرغم من أن ما دفعني للقيام به هو ظلم عمي لأبي قديمًا،

ثم اضطهاده لي حديثًا، وإحساسي بضرورة استرجاع حقي الذي سلب مني بأي وسيلة، ولكن مع مرور الوقت أدركتُ كم كنت ميكيافيليًّا لتصوري أن الغاية تبرر الوسيلة. وها هو الفكر الملتوي لم يفقدني حقوقي في الشركة فحسب، بل أفقدني توازني، أفقدني سكينتي وسعادتي، والعيش على تراب بلدي.



الفصل الثامن

هـــي

القاهرة، 2008

كنت في حجرة حمزة، أقرأ له كتابًا للأطفال قبل النوم، وعندما استسلم للنعاس؛ قمت بهدوء حتى لا أزعجه، لأرد على هايدي التي كانت تحاول الاتصال بي منذ فترة، وعندما خرجتُ من الغرفة، قالت لي عبر محمولي:

- نورا، حاولت الاتصال بك مرارًا؛ لكي أبلغك أننا سنَمُر عليك أنا وباقي أعضاء الفرقة لنخطفك إلى أي مكان تختارينه، نحن في طريقنا إليك، سنكون في خلال ربع ساعة أمام بيتك!

وافقتُ هايدي على الفور، كنت في حاجة إلى الترفيه وتسامر الأصدقاء، بعد أن وضعت عليَّ ثيابي، اتجهت إلى غرفة المعيشة حين كانت أمي تتابع أحد البرامج الحوارية، فقالت بدهشة عندما رأتني مستعدة للخروج:

- ما هذا يا نورا؟ هل حقًّا ستخرجين الآن؟ في هذا الوقت؟!



قلت لأمي على مضض:

- لا يزال الوقت مبكرًا يا أمي، الساعة لم تدق السابعة بعد، وحمزة نائم، وأصحابي من الفرقة سيمرون عليَّ لأشم الهواء في الخارج، أين المشكلة هنا؟

قالت أمي بحزم:

- المشكلة أنك غير قادرة على استيعاب وضعك، ما الداعي للخروج في الليل وأنتِ مطلقة؟ وما الذي سوف أقوله لإيهاب لو اتصل؟

كانت أمي كعادتها تذكرني بأني مطلقة كلما سنحت لها الفرصة، ولكن لأول مرة تذكر إيهاب كفرد يجب مراعاته في تصرفاتي، أغاظتني هذه الفكرة، فقلت لها:

- وما دخل إيهاب بخروجي؟

سمعت وقتها نفير سيارة هايدي، فحمدت ربي أن انتهى الحديث مع أمي إلى هذا الحد، فتحت باب الشقة على عجل واختفيت من أمامها، وجدتُ سيارة هايدي واقفة أمام منزلنا، وقد احتشد بها بعضٌ من أعضاء الفرقة، أما سيارة مصطفى عازف "التشيللو" فكانت واقفة وراءها وبها البعض الآخر، كم سررت لرؤيتهم جميعًا، فقد اعتدت أن



أراهم على الدوام أثناء تدريباتنا، ولكن في الآونة الأخيرة لم أعد أراهم بانتظام لتغيبي المتكررعن التدريب، استقللت سيارة هايدي، واتجهنا إلى المطعم المفضل لدي على النيل في المنيل، كان القمر بدرًا، وكان للنيل سحْرٌ خاصٌّ في هذه الليلة، وكأن الطبيعة كلها تود أن تزف إليَّ خبرًا لم أفهمه، أخذنا جميعًا مقاعدنا منه، وبعد أن قام النادل بتقديم طلباتنا من طعام وشراب، قالت هايدي:

– نحن قلقون عليك يا نورا، لقد أفزعنا عدم انتظامك في التدريبات في الآونة الأخيرة، وبدأ غيابك المتكرر يؤثر على أدائنا في الفرقة، وبالطبع هذا يثيرغضب المايسترو، ماذا بك يا أختاه؟ ماذا دهاكِ؟

قلت، وأنا في غاية التأثر:

– أرجو أن تتحملوني، فإني أمرٌّ بظروف صعبة، ليس بيدي شيء، ابني مريض.

قاطعني محمود عازف الكمان قائلًا:

– وما الجديد يا نورا؟ فهو مريض منذ أن عرفناك.

قلت لهم:

– يجب أن أتخذ قرارًا يخص علاج حمزة، ولا أستطيع أن أتخذه، كم أود أن تفهموني، أنا حقًّا أمرٌّ بمشكلة.

قال هاني مازحًا كعادته:

- ومن منا بلا مشاكل؟ أنا مثلًا حماتي تخنقني، ومحمود لا يستطيع سد جوعه، وهايدي إلى الآن لا تستطيع الحصول على زوج، أما مصطفى فيعاني من تبول لا إرادي بالليل.

أخذ الجميع ينهرونه تارة، ويمازحونه تارة أخرى، وعلت ضحكاتنا كالصغار، كم هزلنا وتسامرنا هذه الليلة! ولم أبرحهم إلا بعد إعطائهم عهدًا بالتزامي في عملي، وأن أفعل كما أمرني المايسترو، ألقي بهمومي في سيارتي أثناء التدريبات.

وعند دخولي المنزل، شعرت بهمهمة داخل صالوننا المغلق، فأدركت أن لدينا ضيوفًا، أثار ذلك دهشتي في هذا الوقت المتأخر من الليل، وبعد أن اطمأننت على حمزة، دخلت غرفتي، ثم دخل ورائي حسام ليقول:

- محمولك مغلق.

قلت بابتسامة:

- لقد انتهى شحنه.

هممت بأن أسأله عن هوية الضيوف، لكنه سبقني قائلًا:

- استعدي بسرعة، لدينا ضيفٌ في الصالون يريد مقابلتك.



- من هو يا حسام؟

لم يرد، وخرج مسرعًا متجهًا إلى الصالون، كانت تعبيرات وجه أخي غريبة، بها دهشة ممزوجة بسعادة، وبدا أيضًا عليه بعض القلق، لم أفهم مَن هذا الضيف الذي جاء فجأةً ويريد رؤيتي، هل هو إيهاب؟ ما أظن، وإلا لما تحدث أخي بهذا الحماس، ربما يكون المايسترو، ولكن ليس من عادته الزيارة دون استئذان، وخاصة إذا كان الوقت متأخرًا، تُرى أيكون أحد أقاربنا أو أصدقائنا القدامي؟ لم أجد بُدًّا من أن أعرف بنفسي، نظرتُ في مرآتي الكبيرة المعلقة على حائط غرفتي، وعدلت ثيابي، ومشطت شعري سريعًا، أخذت نفسًا عميقًا، واتجهت إلى الصالون.

لم أصدق عينيَّ عندما فتحت باب الغرفة! كان هو.. يتوسط أمي وأخي في مجلسهما بعينيه الداكنتين العميقتين، لم يتغير كثيرًا، وأنا أيضًا، إذ تملَّكتني نفس المشاعر القديمة، وكأني مراهقة تحبو أول حبواتها في العشق والهوى، تسارعت دقات قلبي، واهتز لرؤيته كياني، لم أفهم أغوار نفسي، هل غفرت؟ هل نسيت؟ أأراه أمامي؟! شريف، هل أنت حقًّا ضيفنا الليلة؟ رمقني بنظرة أظن أني شفيت بها من كل همومي وأحزاني.





هــو

ما أجمل العودة إلى الوطن، تشعر بالدفءِ والأمان حين تطأ قدمك أرضه، شعور لا يوصف، وكأنك ارتميت في حضن أبيك بعد غياب.. كم افتقدت ملامح وجوه ساكني بلادي، افتقدت شوارعها ومبانيها، حضنت الأماكن بعيني وأنا في طريقي الى الفندق، استلمت جناحي، ووضعت حقائبي وأمتعتي فيه، ثم اتجهت مسرعًا إلى منزلها.

دخلت منزل أهلها في حي الدقي، مازال كما صورته في عيني، نفس الأثاث وأواني الزينة، كل شيء في مكانه، ابتسمت حين وقعت عيناي على البيانو الخاص بنورا، ذكَّرني بساعات غالية قضيتها معها وهي تعزف ألحانها الرائعة واحدًا تلو الآخر.

قابلني حسام بوجه بشوش كعادته معي، ولكن أمها.. كانت مختلفة، شعرتُ بتوجسها وغضبها الذي لم تتورع في إظهاره أثناء حديثها معي - حين قالت:

- أخيرًا تذكرت أنَّ لك ابنًا تسأل عنه يا شريف؟

نظر إليها حسام نظرة رجاء، وكأنه يتوسل أن تخف من حدتها، أما أنا فقلت لأبادلها العتاب:



- لم تمنعني عنه سوى الشدائد يا خالة، ولكن ضعي في الاعتبار أني لم أكن مُلمًّا بحالته، كيف لم يطلعني أحدكم عليها؟

قالت بنفس حدتها وغضبها:

- وهل لا تسأل عنه إلا في مرضه؟ أليس عندك فضول يدفعك إلى أن تسأل عنه لتعرف أخباره، كيف يقضي وقته؟ ماذا يأكل ويشرب؟ وأي حضانة دخلها؟ كحال أي أب في الدنيا!

لم أرغب في الجدال، فليس هذا ما جئت من أجله، علاوة على ذلك أنها محقة، فما هي حجتي عن امتناعي عن السؤال عنه؟ أأقول لها إن جرحي طغى على شعوري بالأبوة، أم أقول إني وضعت كرامتي فوق ضميري، تداركت الموقف حين قلت:

- لا تقسِ علي يا خالة، يعلم الله أني قد اتخذتك أمًّا بعد أمي - رحمة الله عليها - كم عانيت قسوة الوحدة والبعد! لقد جئت ويداي ممدودتان إليكم؛ كي نتعاون من أجل حمزة، ولا يمكن أن أتنصل من مسئوليته.

تبدلت ملامحها إثر كلماتي، وأطلت من عينيها نظرة صفح أراحتني، فقلت لها:

- هل أستطيع أن أقابل نورا؟

قالت بشيء من التردد لم أفهمه:



- لقد خرجت مع بعض أصدقائها من الفرقة للترفيه.

قلت باشتياق بالغ:

- هل يمكنني رؤية حمزة؟

أخذتني واتجهنا إلى حجرة صغيري، لن أنسى رؤيته وهو يضم دميته في حضنه بحنان بالغ أثناء نومه، قبَّلته على جبينه، ما أجمل شعور الإبوة! أن تشعر أن هناك امتدادًا لك ومددًا، أن تدرك أن حياتك أصبح لها معنى وغاية، وكأنك أرض كثرت محاصيلها بعد بوار، أن تطرب روحك حين تملأ عينيك بوجه مَن هو على صورتك، ولكن ببراءة لم تعهدها في مرآتك، صعب عليّ أن أتركه، وكأني خلعت قلبي ووضعته بين يديه الصغيرتين.

وعند خروجنا من غرفة صغيري تغيرت مشاعري، إذ مسني خوف وقلق من هول المسئولية التي ألقيت على كاهلي منذ أن وطئت قدماي غرفته، وتصاعدت تساؤلات عديدة في رأسي، هل سأوفر له الأمن والحماية؟ هل سأوفي طلباته؟ وخصوصًا أنه يعاني من مرض مزمن كريه، ولم أفق إلا على صوت حسام وهو يقول:

- تفضَّل القهوة، أعلم أنك تحبها دون سكر.

شكرت حسام، وأخذنا مجلسنا في الصالون كما كُنا، ثم قال حسام:



- هل أنت مقيم في بيتك القديم؟

- لقد قمت ببيعه منذ زمن، ومقيم الآن في شيراتون القاهرة؛ لقربه من مسكنكم.

خرج حسام بعدها للحظات، ثم عاد لنكمل حديثنا الذي تطرق إلى حمزة وأحواله.

وفُتح الباب ووجدتها أمامي، بدا على وجهها الإرهاق، وازدادت نحافة، وأطلت من عينيها نظرات الدهشة، ولكنها ظلت أجمل من رأت عيناي، وددت لو أستطع أن أخفيها من همومها في أحضاني كعهدي بها سابقًا، ولكن اكتفينا بالسلام، وعندما أحسست برعشة يدها الصغيرة في يدي؛ أطلقت سراحها.

غمرني عطرها حين جلستْ علي مقربة مني.. أما لسانها فصام عن الكلام، وتكلمت عيناها نيابة عنه، كم فيهما من اشتياق ولوعة! وكم فيهما من لوم وحزن! مرَّ الوقت سريعًا، ثم تركتها على موعد في اليوم التالي ظهرًا لرؤية طبيب حمزة.

الفصل التاسع

هــي

لم يغمض لي جفن ليلتها، بل ظللت أتقلب في فراشي، أحاول أن أختبئ من سيل الأسئلة التي حاصرتني، هل ماحدث البارحة كان حلمًا؟ هل حقًّا جاء لرؤيتنا بعد سني الفراق؟ ما أتي به في هذا الوقت بالذات؟ هل افتقدني؟ لم تبح لي عيناه بما وراءه، وماذا عنَّي أنا؟ هل سامحته؟ هل مازلت على حبي له؟ هل أشتاقُ إليه؟ هل لنا من عودة؟

وظللت هكذا حتى الصباح، قمت من فراشي بصداع نصفي رهيب، تذكرت موعد التدريب، وتذكرت أيضًا عهدي الذي قطعته لأصدقائي، وجال بخاطري غضب المايسترو لغيابي المتكرر مؤخرًا، ولكن يعلم الله أنني لم أكن مستعدة للذهاب، وخشيت أن يؤثر ما أعانيه من اضطراب وصداع على أدائي، فلم أجد مفرًّا من الاعتذار مجددًا!

وجاء موعد شريف لاصطحابي إلى الدكتور عامر، وبعد أن التقيناه شرح الطبيب لشريف حالة حمزة بالتفصيل، ألَمَّ شريف بخبايا مرض ابننا بعد استغراقنا معه أكثر من ساعة، وبعد أن انتهينا من الزيارة



عرض عليَّ شريف أن نحتسي القهوة في كافيه قريب، ولم يسعني إلا أن أوافق، فكنت أشعر وقتها بأني وقعت في حبه من جديد!

كان الكافيه مزدحمًا كالعادة في هذا الوقت من اليوم، فلم يكن هناك موطئٌ لقدم، ولأني كنت أتوق لمجلسنا معًا، وبدا لي أن كلًّا منا يحمل للآخر حكايات ليس لها نهاية، تغاضينا عن خضم الزحام، ثم قال شريف:

- اتضح جليًّا من كلام دكتور عامر أن الزرع من الحبل السري هو أفضل علاج لحمزة، نورا، هل من الممكن أن نعود؟

فاجأني بسؤاله، فقد خشيت أن يكون دافع رجوعه لي مرتبطًا فقط بشفاء حمزة، وأن تكون ينابيع حبه لي قد جفت، فقلت:

- ما الذي أتي بك يا شريف؟

- لقد أرسل أخوكِ إليّ بريدًا إلكترونيًّا، وشرح فيه حالة حمزة، فشعرت بضرورة العودة.

لم يقل لي حسام شيئًا عن هذه الرسالة، آه يا أخي، مَن أذن لك أن تتدخل في أمور حياتي دون إذن أو مشاورة؟ سيكون حسابي معك عسيرًا، تمنيت أن يكون وراء مجيء شريف دافعٌ آخر غير الرسالة، فسألته؛ لأُخرج مكنون قلبه:

- هل تظن أن بإمكاننا أن نعود رغم ما فات؟

كم تمنيتُ وقتها أن يبوح لي بلوعة حبه، ويصرح أن قلبه ما زال يخفق باسمي، وأن عشقي يسري في دمه، ولكن صدمتني كلماته - وهو يقول - وكأنه يستدرج موقفه:

- إذا رغبتِ، يمكن أن يكون رجوعنا مؤقتًا، شهرًا واحدًا فقط حتى سفري.

ماذا يظنني هذا الأخرق! كيف له أن يهينني بهذا العرض الرخيص؟ وكأنه أطلق رصاصًا يغتال كبريائي، ترى هل هناك أخرى تنتظره في أمريكا، فجاء لأداء الواجب، وبعدها يعود إلى أحضانها؟ فقلت بعين دامعة وقلب منكسر - وأنا أهم بالرحيل:

- هل هذا ما يسمونه زواج المتعة يا شريف؟ لم أكن أتصور أن ترضى لي هذا الوضع!

وتركته وجريت باكية، أما هو فلم يحرك غضبي له ساكنًا، أخذت سيارة أجرة لأعود أدراجي، ما الذي دفعك إلى أن تقطع كل هذه المسافة يا شريف؟ هل جئت لتوقظ جرحي من جديد؟





هـــو

كنت في طريقي إلى دار المسنين لزيارة عمي مكرم، ودار بخلدي ما جرى بيني وبينها منذ قليل، ما عدت أفهمها، قرأت في عينيها اشتياقها لي، وظننت أنها ستسعد إذا عرضتُ عليها العودة، ولكن وجدتها لا ترحب برجوعنا كما حسبتُ، فقد تساءلت باستنكار: ما الذي أتي بك إلى هنا؟ وهل لنا من عودة بعد الجراح؟ وبدا لي أنني أمام أم مكلومة تتوق لشفاء ابنها الذي لا يتحقق إلا بالعودة إلى زوجها المشتاق، في حين أنها لا ترغب! فقدمتُ لها حلًّا يبدو وسطًا، ولكن يحمل في طياته عذابي، أصير به كظمآن تتسرب من بين أصابعه قطرات الماء، وليتها رضيت به، فما راقها أيضًا، فماذا تريد مني؟ وما عساي أن أفعل لإنقاذ ولدي؟

لم أكن أعلم أن سماء ذلك اليوم ملبدة بغيوم أخرى، إذ وصلت إلى دار المسنين، وسألت عن عمي مكرم، وللأسف علمت أنه قد أصيب بجلطة في الدماغ دخل إثرها العناية المركزة بمستشفى القصر العيني الفرنساوي، اتجهت مسرعًا إلى هناك، وحين وصلت.. رأيت سامح ابن عم مكرم أمام غرفة العناية، أثار ذلك دهشتي وفضولي، رأيته وقد تغير كثيرًا، وترك الزمان آثاره عليه، لم يتعرف عليَّ في الوهلة الأولى، وبدا لي أنه غارق في أحزانه، قدمت نفسي إليه – قائلًا:

- سامح، ألا تتذكرني؟ أنا شريف عز الدين.

نظر بدهشة، ثم أشرق وجهه حين تعرف عليّ، وضمني بقوة وهو يبكي، ويقول:

- شريف، أشكر الله أني قابلتك، اسمك كان آخر ما نطق به أبي قبل دخوله في غيبوبته.

أخذني إلى كافيتريا المستشفى، ثم نظر إليّ وقال:

- كنت مكابرًا عنيدًا، غضبت منه لتبديده ثروته وثروة أمي في البورصة، ولم ينصت لمن حذَّره من التعامل في البورصة دون خبرة مسبقة، مع الأسف صمَّم، وكانت النتيجة كما نعرفها، فحرمته مني بمنتهى القسوة، وتوفيت أمي، ثم دارت الحياة دورتها وتزوجت وأنجبت.

توقف سامح وأجهش بالبكاء، فقلت:

- سامح، لو كان الكلام يؤلمك.. فلا داعي له.

قال بحماس، وهو يجفف دمعه:

- لا، لا يا شريف، إنها فرصة لكي أعترف بذنبي، عندما أنجبتُ إدوارد ابني وضممته إليَّ، أدركت معنى الأبوة، أدركتها من لهفتي عليه وشوقي له، وسألت نفسي: لماذا حرمت أبي مني طوال هذه المدة؟



وهل يوجد من لا يخطئ؟ أبي في النهاية إنسان، لم يضع الخسارة في حسبانه مثل أي إنسان، يمكن أن يتهور ويخطئ، فهل يستحق أن أهجره وهو في أمسِّ الحاجة إليّ؟ لِمَ؟ وكيف؟ لقد قال المسيح **(من كان منكم بلا خطية فليرمها أولًا بحجر)**[1]، لم أدركه يا شريف، عند عودتي كان قد أصيب بجلطة في المخ دخل على إثرها في غيبوبة، يا حبيبي يا أبي.

تركته بعد أن اعتصر قلبي حزنًا وألمًا على حاله وحال أبيه، وربما كنت أرثي لحالي أيضًا، أحيانًا يوهمنا الكِبْر بداخلنا فنتصورأننا قضاة وجلادون في آن واحد، وننسى أن الله هو الذي يحكم في نهاية المطاف، فهو المطلع على خبايا قلوبنا وضمائرنا، أين نحن من ملكوت الله العظيم في قوله: ﴿..**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[2] دعوت لسامح بالصبر، وأن يغفر الله لي وله.

---

(1) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح الخامس، آية 7

(2) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 55

الفصل العاشر

هـــي

عدت إلى منزلي، وصدى كلماته يرن في أذني، شعرت وكأن الأرض تميد بي، إنه يريدني لمدة شهر؛ لأكون له مجرد وعاءٍ أحمل جنينًا ومشيمةً وحبلًا سريًّا ليُشفى ابنه البكر، ثم ينتهي دوري، ورمى بهذا العرض تعاليم ديننا وكرامتي عرض الحائط، أبدًا، لن أكون له جارية، ولكن.. ولكن ماذا عن حمزة، قرة عيني؟ فأنا أمه، يهمني شفاؤه أكثر من أي شيءٍ آخر.

دخلت حجرتي وارتميت على فراشي الذي اهتز لاهتزاز جسمي من شدة البكاء. لمحتني أمي، وأدركتْ سوء حالي، فهُرعت ورائي، واقتحمت غرفتي تسأل باهتمام وقلق:

- نورا، مابك يا حبيبتي؟

قلت، وأنا أذرف دمعًا سخينًا:

- اتركيني وشأني يا أماه، أنا بخير.

جلست أمي على الفراش، ووضعت يدها على كتفي بحنان قائلةً:



- أليس لي عينانِ أراكِ بهما؟ فأنت تعانين من شيءٍ جلل، أخبريني به يا ابنتي.

- لا شيء يا أمي، سأكون على ما يرام، اطمئني واتركيني.

تركتني أمي وهي في حيرة من أمري، وأرخى الليل سدوله، وعَمَّ الهدوء منزلنا، وأوى الجميع إلى فراشهم، وفي اليوم التالي استيقظت على نقرٍ خفيفٍ على باب حجرتي، دخلت أمي تحمل كوبًا من الشاي وشطيرتين، وهي تقول:

- استيقظي يا نورا، هل تعرفين كم بلغ الوقت الآن؟ الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرًا.

قفزت من فراشي، وقلت بانزعاج:

- يا خبر! موعد حضانة حمزة، كيف لم أسمع صوت المنبه؟

قالت أمي بابتسامة:

- لا تقلقي، لقد استيقظت مبكرةً، وألبستُه ثيابه، وقام أخوك بتوصيله وهو في طريقه إلى عمله.

قلت بصوت خافت:

- الحمد لله.

رفعت أمي ستائر غرفتي وهي تقول:



- فضَّلتُ أن أتركك نائمة مدة أطول كي تأخذي قسطًا من الراحة، فأنت بحاجة إليها منذ البارحة، ماذا حدث يا نورا؟ لماذا كنت منفعلة بالأمس؟ هل أغضبك شريف؟

قلت بملل:

- ماما من فضلك، كفاك كلامًا عن شريف.

وفجأة دق محمولي، أفزعني كثيرًا قراءة اسم المتصل، فالتقطُّته على عجل قائلة:

- آلو.

- آلو مدام نورا، أنا مس أشجان من حضانة سوفت روز.

قلت بذعر شديد:

- خير! هل أصاب حمزة أي مكروه؟

- مدام، نريد أن نتكلم معكِ عن أحواله.

قلت، وأنا أمسح دموعي:

- هل آتي إليكم الآن؟

- الآن مناسب جدًّا إن شاء الله.

قفزت من سريري مسرعة، ارتديت ملابسي على عجل، وانتزعت حقيبة يدي من على المقعد المجاور، ثم سمعت صوت أمي من ورائي تقول:



- انتظري يا نورا، سأضع الطرحة على رأسي وأصاحبك.

انطلقنا أنا وأمي إلى هناك، اصطحبتنا مس أشجان إلى غرفة مس نازك مديرة الحضانة، أخذنا مجلسنا، وبعد أن رحبت بنا قالت:

- مدام نورا، لقد لاحظنا أن حالة حمزة في تدهور مستمر.

قلت بلهفة:

- كيف؟

قالت بهدوء:

- لم يعد يلعب أو يتواصل مع أصدقائه كما كان في السابق، ولم يعد يشارك في أي نشاط من أنشطة الحضانة، في السابق كان يشارك أحيانًا، لكن الآن أصبح يقضي وقته في سكون، هزيلًا، شاحبًا، لا يقوى حتى على أن يخطو خطواته الطبيعية، وقد وجدنا أن من واجبنا أن نبلغك.

شكرناها أنا وأمي، ثم قادتنا مس أشجان إلى ساحة اللعب، وكان الأطفال يلعبون بمرح وسرور، ويركبون الزحاليق والمراجيح، ويقفزون بكل رشاقة على الأرجوحات، اعتُصر قلبي عندما شاهدت ابني منزويًا وحيدًا في ركن، ضعيف، عاجز، مغلوب على أمره، رمقني بنظرة استجداء حين رآني، وكأنه يناديني، كان لا يقوى حتى على الوصول إليّ، حملته على الفور وغادرنا المكان.

وأثناء عودتنا أخرجت محمولي من حقيبة يدي، واتصلت بدكتور عامر لأنقل له ما حدث، فأعطاني موعدًا بعيادته مساءً، ثم قالت أمي:

- بلغي شريف؛ كي يأتي معكِ إلى الطبيب.

قلت بحدة:

- لا أرى هذا ضروريًّا.

أيقنت أمي بأن هناك خلافًا وقع بيني وبينه، وكانت على علم أيضًا بأني لن أبوح لها به، فأردفت قائلة:

- إذًا، فاذهبي مع أخيك حسام، لا تذهبي وحدك يا نورا.

لم أكن أدري إذا كانت توصيتها قد جاءت بدافع الخوف عليَّ أم الخوف من ألسنة الناس.

لم يحاول شريف الاتصال بي في ذلك اليوم، وأنا أيضًا. وفي المساء ذهبت مع حسام لزيارة الطبيب، وبعد الكشف والاستماع جلسنا ليقيِّم الطبيب الحالة، ثم قال معقبًا:

- يبدو أن نسبة الهيموجلوبين انخفضت في الدم، عمومًا ستُظهر التحاليل كل شيءٍ.

طلب د. عامر إجراء بعض التحاليل، وأن أطلعه عليها فور ظهور النتائج في خلال يومين.



وأثناء عودتنا، فتح حسام لي التحقيق مجددًا إذ سألني نفس الأسئلة التي دارت بيني وبين أمي، لماذا لم أخبر شريف عن تدهور حالة حمزة؟ ولِمَ لمْ يصطحبني أثناء زيارة الطبيب؟ وماذا دار بيني وبينه؟، ولم أجبه عن أي منها.

وفي اليوم التالي أخذتُ ابني لعمل الفحوصات والتحليلات اللازمة، وأثناء العودة، رن محمولي، قرأت اسم المتصل على الشاشة، وجدتها هايدي، فلم أجب على الرغم من اشتياقي إليها، فقد كنت أعلم أنها ستعاتبني على غيابي المتكرر وعدم الوفاء بعهودي مع أفراد فرقتنا، ثم تسهب في حديثها عن مخاطر إهمال التدريب الذي قد يسفر عن الاستغناء عني نهائيًّا في نهاية المطاف، فهي لم ولن تفهم أنه ليس لي يدٌ في تغيبي وإهمالي التدريبات.

وعند وصولي المنزل، لمحت سيارة شريف أمام البيت، وتسارعت دقات قلبي توترًا، لم أكن على استعداد لمواجهته، أخذت حمزة وصعدت إلى أعلى ودخلت بيتي، وجدته جالسًا وحده في غرفة المعيشة، أما أمي فكانت في الداخل تعد له عصيرًا طازجًا، نهض من مجلسه حين دخولي، وبعد سلام فاتر، أخذ حمزة من بين ذراعي، حضنه وقبَّله، ولكن حمزة أبي أن يستكين بين ذراعيه، وعلا نحيبه خوفًا من ذلك الغريب الذي يراه لأول مرة، رُسمت ملامح الإحباط والأسى على وجه شريف إثر ذلك، بل

ولمحتُ دمعة فرت من عينيه لم يستطع حبسها، وإذ بالأب والابن يبكيان في آن واحد، جاءت أمي لتنقذ الموقف، فأخذت حمزة إلى الداخل بعد أن قدمت لشريف العصير، جلستُ على الكرسي المقابل له، فقال:

– يبدو أن أمه ليست وحدها غاضبة مني، هو أيضًا غاضب.

– هو لا يعرفك يا شريف، لم يرك من قبل، ردُّ فعله طبيعي جدًّا.

– حسنًا، لقد عرفت سبب غضبه، هل يمكنني أن أعرف سبب غضبك أنتِ؟

وتَّرني كثيرًا سؤاله، فهو حتى لا يدرك إهداره لكبريائي بعرضه المستفز، فقلت:

– عذرًا يا شريف، أشعر بصداع يمنعني من الكلام.

عقد حاجبيه، وهو يقول غاضبًا:

– حتى لو غاضبة، هذا لا يعطيك الحق ألا تبلغيني عن حالة حمزة، لقد أطلعتني أمك على استدعاء الحضانة لكِ وزيارتك للدكتورعامر، كيف يحدث كل هذا دون علمي؟ هل نسيتِ أني أبوه؟

قلت بملل شديد:

– اعذرني، لقد اعتدت أن أحمل هَمَّ مرض حمزة وحدي، وأنت تدرك ذلك جيدًا.



- ومتى ستظهر نتائج التحاليل؟

- بعد غد، وبعدها سوف أعرضها على الطبيب.

لم يمد يده للعصير، ونهض من مكانه فجأة قائلًا:

- سأذهب بعد غد لآخذ التحاليل من المعمل، ثم سأمر عليكما لاصطحابكما إلى الطبيب في موعده.

اتجه إلى باب المنزل، فخرجت أمي نحوه قائلة:

- شريف، لماذا لَمْ تشرب العصير؟

قال، وهو يغلق الباب وراءه:

- شارب من "كيعاني" يا خالة!

***

هـــو

استيقظت من فراشي في جناحي الفاخر بالشيراتون على صوت دق الهاتف، فالتقطت السماعة، وإذ بمكالمة خارجية من أمريكا، وجاء صوت بيتر واضحًا جليًّا وهو يقول:

– ما هذا الذي أرسلته إليّ على البريد الإلكتروني؟ هل حقًّا تريد مدَّ إجازتك لثلاثة أشهر؟ هل تمزح؟

– لقد قمت بشرح ظروفي (بيت)، ابني مريض ولابد من مساندته في هذا الوقت الحرج، لكن أخبرني، كيف لَمْ تنم حتى الآن؟ كم الساعة عندك؟

– لا شأن لك بالوقت عندنا وأجبني، ألست مُلمًّا بما لدينا من التزامات، وبنود عقد، وصفقات، وحملات دعائية وإعلامية؟ هل نسيت كل هذا؟

– لم أنسَ والله، وقد عرضت عليك العمل من مصر في الفترة القادمة، وأن أتواصل معك عبر الإنترنت، وهذا يعني أن إجازتي لن تكون إجازة بالمعنى المفهوم، ما عساي أن أفعل أكثر من ذلك؟

– أنت تعلم أنه من الصعب أن تقوم بكل العمل عبر الإنترنت، لابد أن تأتي فور انتهاء إجازتك.

– لا أستطيع (بيت)، كل واحد منا له أولوياته، أنا آسف، لقد خرج الأمر من يدي.

أدرك بيتر إصراري على طلب مد الإجازة، وشعرت بحيرته للحظة، ثم استدرك قائلًا:



- حسنًا، فهمت.

نهضت من فراشي نشيطًا، فقد أسعدني قبول بيتر مد إجازتي، واتجهت إلى مطعم الفندق لتناول إفطاري، ثم وضعت عليَّ ثيابي، واتجهت إلى المعمل؛ لاستلام تحاليل وتقارير حمزة، فزعت كثيرًا وأنا أقترب من مكان المعمل إذ كان على مقربة من صرح عز الدين للدعاية والإعلان بالمهندسين، سألت نفسي: ماذا لو قابلت عمي، أو ابن عمي رامي؟ أو حتى أحد الموظفين.. ماذا سأقول لهم؟ كم روَّعتني هذه الفكرة، وجعلتني أتلفت عن يميني وعن يساري، وكأني مجرم يخشى أن يقع في قبضة العدالة، حينها فقط أدركت أن أيامي على الأرض التي عشقت ترابها معدودة.

بعد أن استلمت تحاليل حمزة، اتجهت إلى محل لعب للأطفال، اشتريت له دمية، قد تكون مهرًا لودِّه، وبعدها اتجهت إلى منزل نورا، ولم أنتظر كثيرًا، نزلتْ ومعها حمزة في الميعاد، وعندما رأى حمزة الدمية الجديدة، ابتهج وابتسم لي ابتسامة ساوت عندي الدنيا وما فيها، ما أطيب قلب الصغار! إذ نسي حمزة سنوات الفراق بدمية!

لازمنا الصمت في طريقنا إلى عيادة الطبيب، وحين الانتظار في الصالة الخارجية حتى جاء دورنا، أجلسنا الطبيب وقام بالكشف الروتيني على حمزة، ثم نظر طويلًا في نتائج التحليلات والتقارير الخاصة بها، بدا عليه عدم الارتياح من النتائج، أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال لنا:

- للأسف، لقد اشتدت عليه الأنيميا، ولابد من نقل دم فورًا، وإذا لم يجرِ عملية زرع نخاع في أَقرب وقت، قد لا يتحمل قلبه أكثر من ذلك، وقد يدخل في هبوط حاد أسوأ من الذي سبقه؛ لأن الموجات الصوتية على القلب أظهرت أن عضلة القلب قد تدهورت.

ضمت "نورا" حمزة بطريقة عفوية، وهي تقاوم الدموع التي تجمعت في مقلتيها، أما أنا فشكرت دكتور عامر، ثم تركناه واصطحبت نورا وابنها حتى أوصلتهما إلى منزلهما بالدقي، أخذت الأفكار تلاحقني أثناء العودة إلى الشيراتون. نورا، بات الحل الوحيد لابننا أن نعود، فلم لا تعطينه وتعطيننا الفرصة لنحيا، ضاقت وقد استحكمت حلقاتها، فهل من فرجٍ قريبٍ؟



الفصل الحادي عشر

هـــي

عدت إلى منزلي، وكلام الطبيب يدوِّي في نفسي، مستحيل أن أخذل صغيري، لا يمكن أن أتركه يضيع مني! ولا أستوعب كيف تكون حياتي بدونه، لا يمكن أن أتخلى عنه، فقد وضعت كرامتي فوق حبي لسنوات، أما الآن لا أجد بُدًّا من أن أضعها تحت قدميَّ من أجل فلذة كبدي.

دخلت غرفة المعيشة، ولأول مرة منذ زمن جلست على البيانو، وأخذت أعزف بإيقاع عنيف مقطوعة تلو الأخرى، وكأن غضبي ينفذ عبر لمسات أصابعي على مفاتيح البيانو، ولم أشعر إلَّا والساعة تدق العاشرة مساءً! وجدت حمزة وقد تسلل النوم إلى جفونه، لا أدري كم من الوقت استغرقه نائمًا على الكرسي المجاور للبيانو، حملته لأنقله على فراشه، ثم سمعت أمي وهي تقول من حجرتها بعد أن لمحتني، وقد تأهبت للنوم:

- هل نام حمزة دون أن يتناول وجبة العشاء يا نورا؟



- أجل يا أمي، لقد غلبه النعاس.

- لِمَ يا نورا؟ كان ضروريًّا أن تُطْعِميه قبل النوم، ألا يكفي أن أكلاته ضئيلة؟ أنتركه دون عشاء؟

قلت؛ لأدير دفة حديثها إلى وجهة أخرى، وأوقف سيل التوبيخ:

- ألا تريدين معرفة ما قاله لي الطبيب اليوم؟

- لقد اطمأننت فور عزفك، لابد أن يكون قد طمأنك.

لم أرد إزعاجها بما قاله الطبيب، فأنا أعلم مدى حبها لحمزة وتعلقها به، دخلت حجرتي وخلعت ملابسي، ورميت نفسي على فراشي أطلب النوم، ولكن أي نوم أطلبه في هذا الوقت الحرج؟ لا، لابد أن أتحرك، لا وقت للراحة، حاولت الاتصال بشريف، فوجدت محموله غير متاح، وضعت عليَّ ثيابي من جديد، وتسللت بهدوء لأُجَنب نفسي سيلًا من تأنيب أمي إذا شعرت بخروجي من المنزل في هذا الوقت المتأخر.

أخذت سيارتي، واتجهت إلى فندق شيراتون.





هــو

أغلقت حاسوبي المحمول بعد أن أنجزت بعض الأعمال الخاصة بشركة (براندنج)، واستلقيت على فراشي بجناحي بالشيراتون، هاجمتني مخاوفي وأوجاعي فور انتهائي من العمل، ثم دق جرس الهاتف، والتقطت السماعة، وقلت بصوت مجهد:

- آلو.

وإذ بصوت موظف الاستقبال يقول:

- أستاذ شريف، لقد جاءت سيدة إلى هنا وتريد مقابلتك، هل نسمح لها بالصعود؟

نظرتُ إلى الساعة المعلقة على الحائط بدهشة، ثم قلت:

- سيدة! من؟

- مدام نورا حامد.

نورا! آخر من كنت أتوقع زيارتها الليلة، أسرعت قائلًا:

- اسمح لها بالصعود فورًا.

نهضت من فراشي على الفور، وهيأت نفسي سريعًا للمقابلة قبل

أن أسمع طرقها، ثم فتحت الباب، وجدتها أمامي بعينين زائغتين، فقلت مرحبًا:

- تفضلي يا نورا، ادخلي.

قالت بثبات دون أن تدخل:

- شريف، لقد عرضت عليّ منذ أيام أن نعود من أجل حمزة، ولقد قبلت العرض.

- أنا سعيد أنك توصلتِ إلى هذا القرار؛ لأنه ليس بوسعنا غيره.

قالت بصوت خافت:

- صحيح، ليس بوسعنا غيره!

وضممتها إليَّ، ولكنها ابتعدت قليلًا، ثم قالت:

- معذرة، لابد أن أغادر الآن.

- هل أقوم بتوصيلك إلى المنزل؟

- لا داعي، معي سيارتي. شريف، سأنتظرك غدًا الساعة السادسة في منزلنا حتى نتفق على إجراءات العودة.

وفي اليوم التالي، أيقظتني أشعة الشمس دون رحمة، فأنا لم أنم ليلتها إلا بعد انبلاج الفجر، تناولت إفطاري مترقبًا موعدنا، قادتني قدماي إلى جولة حول المدينة، اشتريت خلالها لعبة لحمزة وطاقة من



الورد قمت باختيار كل غصن فيها بنفسي، فكنت أعلم أن ذلك يروق نورا كثيرًا، وعندما دقت الساعة السادسة، كنت في منزل نورا وعائلتها، أخذ كل منا مجلسه في الصالون، جلست نورا في المقعد المقابل بملابس بسيطة، ولكن أنيقة، تخفض عينيها إلى الأرض خلال حديثنا، أما حمزة فكان يجلس على المقعد المجاور منهمكًا في اكتشاف لعبته الجديدة، ثم قال حسام بحماس:

- كنت على يقين أن هذا اليوم سوف يأتي، كان حتمًا أن تعودا.

ثم قالت أم نورا:

- ولكن يا شريف، أنت لا تملك بيتًا في القاهرة.

قلت؛ لأكون واضحًا:

- لا أنوي الاستقرار في القاهرة يا خالة، فعملي الدائم في الولايات المتحدة.

نظرتُ إلى نورا، وجدت عينيها ثابتتين على الأرض دون أن تنبس ببنت شفة، أما أمها.. فأردفت قائلة:

- لا يا شريف، لابد أن تملك بيتًا في القاهرة، ويكون مجهزًا على أعلى مستوى، ولابد أن نحدد مهرًا ومؤخر صداق، فهذا يعد زواجًا جديدًا.

قاطعها حسام - قائلًا - وقد بدت ملامح الغيظ على وجهه:

- ما بك يا أمي؟ لِمَ تضغطين على شريف على هذا النحو؟

أردفت أمها قائلة بحدة:

- الشرط نور يا بني.

قلتُ موافقًا:

- أبي - رحمة الله عليه - كان دائمًا يقول ذلك.

لم أعتنِ كثيرًا بسيل الطلبات الذي غمرتني به أمها بعد ذلك، كل ما كان يهمني في الأمر هو تقبلهم لإقامتي الدائمة في الولايات المتحدة، فقلت بابتسامة:

- ليس لدي أي مانع، سأقوم بتنفيذ كل ما يرضيك يا خالة.



الفصل الثاني عشر

هــــي

استيقظت مبكرةً، وكان يوم عقد قرآني على شريف، انتابتني أحاسيس متضاربة: خائفة، مترقبة، سأعود إلى أحضان من عشقته يومًا، ولكن لم أكن أتمنى أن نعود بهذه الطريقة، مرغمين على العودة، ثم هل سنستمر؟ وماذا سيكون حالي معه في الغربة إذا استمررنا وقد تغربت معه في بلدي؟ ثم نظرت إلى ابني النائم بجانبي، كل شيء يهون من أجل عينيك يا ولدي.

اتجهت إلى المطبخ لإعداد بعض القهوة، قمت بتشغيل الغلاية الكهربائية، وبعد أن وضعت مقادير القهوة في الكوب، سمعت صوت أخي من ورائي يقول:

- صباح الخير يا أحلى عروسة.

ابتسمت قائلة:

- صباح الخير يا حسام، أترغب في أن أحضر لك فنجانًا من القهوة؟

- آه، كم سأفتقد هذا الاهتمام!

دق جرس محمولي، وعندما قرأت اسم المتصل على شاشته سألت حسام:

- حسام، ألم تبلغ إيهاب بخبر عودتي إلى شريف؟

- أجل يا نورا، وقد قلت لك هذا من قبل.

- إذًا، لماذا يتصل بي الآن؟

لم أجد بُدًّا من أن أرد حتى أعرف ما وراءه، سمعته يقول بشيء من التهكم:

- مبروك يا عروسة، ولكن كنت أظن أنكم ستدعونني لحضور هذه المناسبة.

قلت بشيء من القلق:

- إيهاب، أتمنى أن تقدر موقفي، أرجوك لا تحاول الاتصال بي ثانية.

- حسنًا، إذا كانت هذه رغبتك سأفعل، ولكن ظننت أن صداقتنا يمكن أن تدوم.

قلت بفتور:

- إن شاء الله.



- ولكن، من شيم الأصدقاء أن يتواصلوا ليطمئنوا على أصدقائهم.

قلت له متوسلة:

- إيهاب، من فضلك، لا تضغط عليَّ.

- لا تفزعي هكذا، لقد اتصلت فقط للمباركة.

حمدت ربي أني قد أنهيت هذه المكالمة الثقيلة، رمقني أخي الذي كان يقف على مقربة مني ببضع خطوات بنظرة ضيق، وقال متحفزًا:

- كان ينبغي عدم الرد على اتصاله، من الآن فصاعدًا لابد أن تلغي مكالمته إذا اتصل.

قلت بدهشة:

- لماذا يا حسام؟، لم لا نحترم الآخرين؟ خصوصًا أنك قلت إنه تقبل خبر رجوعي إلى شريف، وكان متفهمًا للغاية إلى آخر لحظة.

- أجل يا نورا، لكن هذا ليس مبررًا لأن يتصل بك ثانية، لا داعي لأن يكون لك به أي علاقة، لابد أن توقفيه.





هو

عقدنا القرآن في مسجد الشرطة بصلاح سالم، ثم أخذتُ نورا وأسرتها وابننا وصديقة لها لم أكن أعرفها تُدعى هايدي؛ لنحتفل بهذه المناسبة في مطعم روستري بالمعادي، وكان المطعم هادئًا مثل الحي الذي يقع فيه، وكنت منتشيًا عندما استكان حمزة على ركبتيَّ، واستكانت أمه تحت ذراعي، أما حسام فكان في أسعد حالاته، ثم رمقتُ حماتي بنظرة حانية لأطمئنها، إذ كشفت ملامح وجهها بعض القلق الذي اعتراها، وضعت حماتي ابتسامة تائهة على شفتيها، وهي تقول:

- لا تقلقا على حمزة، سأضعه في عيني.

قالت هايدي:

- هل ستسافران حقًّا إلى الإسكندرية؟ إنها مدينة في غاية الرومانسية في هذا الوقت بالذات، لكن يا شريف، أسبوع ليس كافيًا.

قلت:

- كم أود أن أقضي ما تبقى لي من إجازة في الإسكندرية، لكن نورا تفضل العودة إلى القاهرة من أجل حمزة.

أردفت هايدي:



- هل ستقيمان عند الخالة هناء بعد عودتكما؟

قلت مبتسمًا:

- بالطبع لا، سوف نقيم في جناحي بالشيراتون.

لمعت عينا هايدي، أما نورا فلم تنطق إلا بكلمة واحدة:

- تلك رفاهية لا داعي لها، أرى الأفضل أن نسكن مع أمي، أو نقوم بتأجير شقة مؤقتًا حتى..

دفعت هايدي نورا برفق، وهي تقول:

- يبدو أنك تعشقين الشقاء، ألا ترغبين في العيش في جناح بخدمة خمسة نجوم؟

قلت ضاحكًا:

- اقنعيها يا هايدي أن نقضي أيامنا في الفندق حتى موعد عودتنا إلى الولايات.

تطرقنا بعدها إلى مواضيع مختلفة حتى انقضاء الأمسية.

وأخيرًا صحبتُ زوجتي واتجهنا إلى جناحنا في الفندق؛ لقضاء الليلة قبل سفرنا إلى الإسكندرية، وعندما أغلقتُ باب الجناح دخلت نورا - مستسلمة - غرفة نومي، وجلستْ على فراشي، لم تأبه بما قد أعددته لها من زينة، فقد علقتُ الورود الملونة والقلوب اللامعة بتناسق

رائع في كل ركن من أركان الغرفة، وحتى لم تلقِ بالًا للمشروبات الطازجة والمأكولات الشهية المجهزة على المنضدة الخارجية، فقلت:

- ألا ترغبين أن تأكلي؟

ابتسمت قائلة:

- لقد أكلنا للتو في المطعم.

ثم ظلت ساكنة بعدها، اقتربت منها، وقلت لها:

- نورا، لقد افتقدتك كثيرًا!

أطفأت النور، وجذبتها بين ذراعي، شعرتُ وكأن الشمس عادت إلى سمائها بعد ليل طويل، حبيبتي، ملجؤك الطبيعي بين أحضاني، قد حفظته لك واحة مهجورة لم تدنسها قدم، حَوِّليه أنت بلمستك إلى بستان ورد، كما كان. ودعيني أتنفس عطرك لأنتشي به، وأحس نبضات قلبك في صدري.. فتحييني، أخذت أتلمس وجهها بشفتيَّ لأرتوي، ولكن.. ولكن وجدتها ساكنة بين ذراعي، كان صمتها مسموعًا، آلمني صداه، يعلن عن تمرد وعصيان، وكان صك الاعتراض قطرة دمع بللت شفتيَّ، فلم أجد بُدًّا من أن أخلي سبيلها وأعتقها في الحال، ابتعدتُ عنها وأخذتُ سترتي ورحلت، لا أعلم أين يقودني طريقي، أخذت أشاهد المارة من حولي، على الرغم من مسحة الحزن والأسى التي



كست وجوه ساكني المدينة، ما أظن أن هناك قلبًا اعتصر كما اعتصر قلبي، أو أن روحًا غابت عن جسدها كما غابت روحي! الآن وقد وصلتني رسالتك يا نورا دون أن تكتبيها، وعلمتُ منها أن حبك قد نضب، ورجوعك لي لم يكن إلا من أجل حمزة، عقيم هذا العالم بدون حبك، لقد أصبحت علاقتنا مستعصية؛ لأني لن أسمح يا أميرتي أن يكون حضني لكِ سجنًا، وقربي لكِ عذابًا وقهرًا، ثم جال بخاطري صغيري، فأيقنت أني في ورطة حقيقية، لا أعلم أين السبيل!

الفصل الثالث عشر

هـــي

قبَّلت حمزة، وودعت هايدي وأمي وحسام، ثم أخذني زوجي إلى جناحه بالفندق، كان مرتبًا، زيَّنه شريف بأنواع الورود التي أحبها في كل ركن منها، ووجدت أشهى المأكولات والمشروبات موضوعة على المائدة التي توسطت حجرة معيشة الجناح، مشيت بخطى زاحفة إلى غرفة نومه، وجلست على فراشه، وعندما جذبني نحوه جال بخاطري يومنا الأول منذ سنين، تذكرت لهفتنا واشتياقنا، وكيف ذبت فيه وتلاشيت تحت ظله، أما الآن فأنا بين أحضانه ليس إلا لأداء الواجب، ذرفت دمعة على ما فات، ترى هل لحبنا من عودة، وما إن سألت نفسي، وجدته يبتعد عني وكأنه يرد على سؤالي، ثم أخذ سترته وخرج، تركني وحدي فريسة لأفكاري، كنت على يقين أنه لن يستطيع أن يقترب إذا كان دافع الحب عنه قد غاب، هكذا عرفته، ينطق بمشاعره، دفءُ لمساته، كم لعبتُ على أوتار قلبه قديمًا أجمل النغمات، ولكن الآن تاهت كل الألحان.

قطعنا إجازتنا بعد قضاء ثلاثة أيام في الإسكندرية، كنا فيها غريبين، فما استطاعت شواطئها أن تعيدنا كما تعيد موج البحر الثائر إلى أعماقه،



وما استطاع سحر نسيمها أن يذيب الجمود الذي حلَّ بنا، وما تمكنت شمسها من أن تضيء قلوبنا، فكان لزامًا علينا أن نعود من حيث ذهبنا.

لم تتقبل أمي رجوعنا المبكر دون مبرر، فانهالت عليّ بسيل من الأسئلة، قالت لي أثناء زيارتي لها، وكنا في المطبخ حيث كانت تقطع الطماطم تجهيزًا لوجبة الغداء:

- ما زلت أجهل، لِمَ عدتما مبكرين، نورا؟ هل بدأ شريف في مضايقتك كعهده سابقًا؟ أخبريني، أنا أمك.

قلت بابتسامة؛ لأطمئنها، وأنا أدهن الحلة بالسمن:

- أمي، شريف كان في منتهى الرقة والحنان، لكني افتقدت حمزة كثيرًا؛ ولذلك عدنا قبل الموعد المحدد.

توقفت أمي عن الطهي، ثم رفعت حاجبيها - قائلة:

- أتستخفين بعقلي يا نورا؟ لقد قضيتِ أكثر من أسبوع بعيدة عن ابنك أثناء سفرك مع الفرقة، ما الذي جدَّ عليك؟

لم يُرحْها كلامي ومبرراتي، فاستأنفت الهجوم على شريف قائلة:

- وهل بدأ في البحث عن بيت كما وعد؟

- أجل يا أمي، (جاري البحث) في المناطق الجديدة في مدينة السادس من أكتوبر والرحاب والتجمع.

استأنفت أمي أعمال الطهي، أما أنا فنظرت من النافذة أترقب قدوم ابني من الحضانة مع خاله، ولم تمر لحظات حتى دخلا علينا، لمعت عينا حمزة حين وقعت عليَّ، وارتمي في أحضاني، أما حسام فوضع حقيبة حمزة على الكرسي القريب بمدخل الشقة، وقال بدهشة:

- يا لها من مفاجأة سارة، نورا! أليس موعد عودتكما من الإسكندرية الخميس القادم؟

قالت أمي:

- حقًّا يا حسام، ألا ترى معي أن هذا أمر غريب؟

أخذتُ حمزة إلى الداخل؛ لتغيير ملابسه، ولأوقف الحديث عند هذا الحد.



هــو

كنت عائداً من مدينة السادس من أكتوبر بعد أن أنفقت يومي كاملًا أبحث فيه عن منزل مناسب لأسرتي الصغيرة، عدت محملًا بكتيبات دعاية لمنازل بمجمع المباني المتعدد (كومباوند)، وأخرى لمنازل مستقلة



لأعرضها على نورا وتختار الأنسب، كنت مرهقًا للغاية، وعند دخولي الجناح بالفندق أدركت أنه خالٍ، فنورا لم تعد بعد، يبدو أنها لا تزال في زيارة أهلها، رميت نفسي على "الشيزلونج" الذي كنت قد اتخذته فراشًا بعد ارتباطي بنورا، ثم نظرت إلى الساعة، لقد تأخرت نورا. أخرجت محمولي للاتصال بها، وإذ به يدق، لم أتعرف على المتصل، ففتحته قائلًا:

- آلو. من معي؟

- كيف حالك يا شريف، أنا هايدي صديقة نورا.

- أهلًا هايدي.

- هل نورا موجودة؟

تعجبت من السؤال، فلِمَ لا تتصل بنورا مباشرة؟ قلت:

- لم تأتِ بعد.

قالت بارتياح:

- الحمد لله، أستطيع أن أتحدث معك على حريتي.

أزعجني كلامها؛ فقلت:

- ما الأمر؟

- شريف، أدرك مقدار حبك لنورا؛ ولذلك لجأت إليك. نورا لم تعد تهتم بالتدريبات، نصحتها مرارًا، أنا وباقي أعضاء الفرقة دون فائدة، لقد اقترب موعد الحفل، وكلنا في موقف سيئ للغاية. المايسترو

غاضب منها، والوقت لن يسعفه لاستبدال عازفة بيانو أخرى بها، ثم لم يكن هذا أبدًا سلوك نورا، لقد عهدناها ملتزمة، وكان المايسترو دائمًا فخورًا بها للغاية، لماذا تغير كل هذا؟ لا أفهم.

أقلقني كلامها، ماذا حدث لحبيبتي؟ فأنا أعهدها ملتزمة، يجري الفن في عروقها، هل زواجها بي على غير رغبتها سبب كبوتها، يا إلهى! كيف أمد لها يد العون؟ لم أفق إلا على صوت هايدي، وهي تقول:

- آلو شريف، هل لا تزال معي؟

- نعم، نعم، أسمعك. سأحدثها في الأمر يا هايدي، إن شاء الله ستلتزم قريبًا.

- أرجو ألا تخبرها باتصالي بك، أخشى أن تغضب مني.

- لا تقلقي.

دخلت نورا فور انتهاء المكالمة، وكانت تحمل حمزة نائمًا على كتفها، قفزتُ من "الشيزلونج"، وأخذت منها صغيرنا، ووضعته برفق على الفراش، أما هي فنظرت إلى رزمة كتيبات الدعاية عن المنازل الحديثة، وقالت بدهشة:

- أيعقل يا شريف هذا الكم من كتيبات الدعاية؟ أتريد أن تقنعني أنك مررت على كل هذه البيوت؟!

- لقد أجهدت جدًّا اليوم.



الفصل الرابع عشر

هـــي

اتكأتُ على الأريكة بعد أن وضع شريف ابننا حمزة بحنو بالغ على الفراش، أمتعني رؤيته وهو يقبل يدي صغيري، ثم بدأتُ أتصفح كتيبات الدعاية التي كانت حصيد يومه، قال لي باهتمام:

- نورا، لا أراك تتدربين على العزف هذه الأيام كعهدي بك سابقًا، أليس هناك حفل قريب لتستعدي له؟

لم أكن أتوقع أن يلاحظ عدم التزامي بالعمل، فقلت:

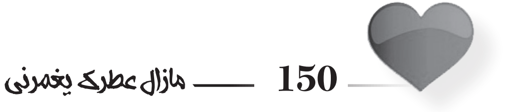
- سيقام حفل في خلال شهر ونصف، وصحيح.. لم أواظب على التدريب منذ فترة، أعتقد أن المايسترو سيستغني عني قريبًا!

صمتُّ قليلًا، ثم أردفت قائلة:

- أليس هذا ما تريده؟

قال باستنكار:

- بالطبع لا. هذا التزام يا نورا، كوني على مستوى المسئولية، لا أريدك أن تخذلي من وضع فيك ثقته. والإنسان سُمعة.



- لا تحاول، لا فائدة.

- هل لي أن أعرف السبب؟

قلت بعصبية شديدة لا أجد لها تفسيرًا:

- لا يوجد سببٌ محددٌ يا شريف، أشعر بإرهاق، سئمت كل شيء، أشعر بضغط عليّ، لم أعد قادرة على تحريك أصابعي على البيانو.. ليس بيدي!

أدرتُ وجهي عنه؛ حتى لا يرى دموعي، فأدار بأصابعه وجهي برفق نحوه وهو يقول:

- لكن نورا التي أعرفها أقوى من ذلك.

لو لم أكن أعرفه لظننت أنه ساحر أو حاوي، كيف وقع كلامه عليَّ بلسمًا يشفي ما تسلل إلى نفسي من حيرة ويأس إلى حد فقداني الثقة في فني، بل وفي نفسي، أجل فإني أستمد قوتي وثباتي منه، لقد تذكرت أيامنا الخوالي، وكيف استطعت به أن أجتاز محنًا، بل أهوالًا.

أكمل شريف - وهو يجفف دمعي - قائلًا بابتسامة خلابة:

- نورا، أنا واثق أنك ستبهرين المايسترو وكل أعضاء الفرقة، بل وكل جمهورك وأنا أولهم، فقط إذا أردتِ.

كنت في استوديو حسن البحيري في تمام موعد التدريب، كم سررتُ بفرحة زملائي بي! أخذتني هايدي بالأحضان، وصاح هاني قائلًا:

- أميرتنا وصلت يا أهل الفن.



أما محمود عازف الكمان، فعزف لي مطلع مقطوعة (الزفاف) لعلمه برجوعي إلى زوجي، وأطلق مصطفى عازف التشيللو الزغاريد في وسط تهليل ومرح باقي الزملاء.

وعند دخول المايسترو أخذنا مجلسنا من آلاتنا الموسيقية، أما المايسترو فرمقني بنظرة هادئة، وكأنه يريد أن يطمئنني بأنه متفهم لحالي، اندهشتُ لها؛ لأني كنت أشعر بنفاد صبره عليَّ في الآونة الأخيرة.

بدأنا العزف، وللأسف عزفت عزفًا متقطعًا، خجلت من نفسي لتكرار أخطائي، وكدت أن أعتذر أكثر من مرة عن الاستمرار في التدريب، ولكن اتساع صدر المايسترو كان يثنيني عما انتويته.. ترى هل هي شَعرة الفنان التي تجعل المايسترو يتصرف حسب مزاجه العام، فتارة ينفد صبره وتارة يصبر، أم أن هناك سببًا آخرًا جعله يتحمل أخطائي المتكررة؟ لا أدري ولكن احتواءه لي ودعم أفراد الفرقة جعلاني تدريجيًّا أعود كما كنت، وبعد أن فرغنا من التدريب كان لزامًا عليَّ أن أعتذر للمايسترو عن تقصيري وغيابي المتكرر في الفترة الأخيرة، فاتجهت نحوه قائلة:

- أعتذر يا مايسترو، كان الأمر خارجًا عن إرادتي، لكني أعدك أن غيابي وعدم التزامي لن يتكررا ثانية.

قال المايسترو بهدوء:

- نورا، نحن فريق عمل واحد. كل فنان فيه نجم، وله دور مميز وعظيم. لا نستطيع استبدال الأدوار أو الاستغناء عن أي دور، هل فهمت القصد من كلامي؟

- فهمت.

ثم قال بابتسامة:

- المهم.. هل انتهت مشكلتك؟

كعهدي به دائمًا، لا يعنف عضوًا من فرقته مادام اعترف بخطئه، قلت بابتسامة:

- ربنا يسهل.

مشيت خطوات ناحية باب الاستوديو، فناداني قائلًا:

- نورا، مبروك.

التفتُّ إليه، وقلت بعين زائغة:

- الله يبارك فيك.

هممت بالرحيل ثانية، فقال:

- ولكني مازلتُ أرى الحيرة في عينيك.

ابتسمت قائلة:



- أتقرأ أفكاري إلى هذا الحد؟!

قال باهتمام:

- ألستِ سعيدة بعودتك إلى زوجك؟

- بالعكس، ولكني أخشى ألا يكون هو سعيدًا بعودتي له.

قال المايسترو مبتسمًا وهو يضع يده على أحد مفاتيح البيانو:

- اسأليه يا نورا، واجهيه. لست أفهم لِمَ نضيع حياتنا في تخمينات وافتراضات وهمية مع أن أقصر الطرق المواجهة، وبعد أن تسأليه ويفصح لك كم هو سعيد بعودته إليك، أظهري أنتِ أيضًا مقدار حبك له.



هو

اليوم أضفت إلى مهاراتي مهارة جديدة اكتسبتها، سأضعها في سيرتي الذاتية دون نقاش، وهي مربي أطفال (بيبي سيتر)؛ إذ أخذت حمزة وذهبت به إلى النادي، وقضيت معه معظم ساعات النهار، غيرت ملابسه مرتين، وقمت بإطعامه على فترات، وحاولت أن أوقفه عن البكاء أكثر من مرة، لابد أن أرفع القبعة لكل سيدات العالم، أعترف أن لا أحد يستطيع منافستهن في التحمل والصبر.

وحين كنا في طريق العودة، دق محمولي، فتحته فسمعت صوت حسام مجلجلًا وهو يقول:

- أبو نسب، أريد مقابلتك لأمر هام.

- حسنًا، أنا في طريقي إلى الفندق، فلنتقابل هناك.

وصلت الفندق وأنا أحمل صغيري، وسألت موظف الاستقبال عن قدوم زائر لي يُدعى حسام حامد، وعند نفيه أخبرته أنه على وشك القدوم، وأمرته أن يأذن له بالصعود إلى جناحي فور قدومه، ثم صعدت إلى الجناح، لم تكن نورا قد وصلت من التدريب بعد، أسلمتُ حمزة للفراش وكان مستغرقًا في نومه، ثم جلست في غرفة معيشة الجناح على "الشيزلونج" أو فراشي الخاص حينها، مددت قدميَّ وأدرت التلفاز، وكان فيلمًا مضحكًا للغاية للكوميديان الرائع إسماعيل يس يحمل اسم (حماتي ملاك)، كان يس فيه حانوتيًّا يُغَسِّل زوجًا على قيد الحياة، اضطر أن يتظاهر بالموت؛ ليختبر مشاعر زوجته، وبعد فترة نقر حسام على بابي، ففتحت له على الفور، وأغلقت التلفاز، وبعد أن تبادلنا ترحيبًا حارًّا، أجلسته وقدمت إليه عصيرًا طازجًا، ثم قال لي حسام وهو يرشف من كوب العصير:

- شريف، أنت تعلم أنك أخ عزيز لدي؛ ولذلك أريد استشارتك.

قلت بتوجس:



- كلي آذان صاغية.

قال بحماس:

- أنا أحبُّ هايدي صديقة نورا، وأريد خطبتها.

تعجبت من الأيام التي أطلقت عنانها، إذ تذكرت حسام حين عرفته أول مرة وكان يركل الكرة مرتديًا سرواله القصير في أحد ملاعب النادي، والآن أراه أمامي قد نضج وأصبح رجلًا، يستشيرني في عروسه، اندهشت من تغير أدوارنا مرارًا على مسرح الحياة، ولكن المهم أن نتقن كل دور؛ لتنجح روايتنا في النهاية، قلت وما أزال مبتسمًا:

- إنها بنت ممتازة.

عقد حاجبيه وهو يقول:

- لكن هناك مشكلة واحدة.

- ما هي؟

- تكبرني في السن أربعة أعوام.

قلت وأنا أهز كتفيَّ:

- وما المشلكة؟

- المشكلة في حماتك، هل تستطيع أن تتوسط لي عندها؟

قلت معترضًا:

- انس تمامًا هذا المطلب. أنت تعلم جيدًا أنها بالكاد ترضى عني، ابحث عن غيري ليقوم بهذه المهمة، لا أملك إلا الدعاء لك من سان فرانسيسكو.

قال حسام بخيبة أمل:

- تتكلم وكأنك تعمل في مكة! هل من الأخوة أن تتنصل من أخيك؟ لقد ظننتك أشجع من ذلك.

- لِم لا تطلع نورا على الأمر؟ فهي أكثر ملاءمة مني للقيام بهذه المهمة.

قال يائسًا:

- إذا اقتنعت.

- آه، يبدو أن مشكلتك مزدوجة.. أمك وأختك.

- لا. نورا أمرها هَيِّنٌ غير أمي، ولكن كيف حالك معها؟

بدا لي أن جلستنا جلسة سرية يُطلع فيها كلٌّ منا الآخر على خبايا قلبه، فقررت أن أبوح له بما ضاق به صدري، فقلت بأسًى:

- أرثي لحالها كثيرًا، أشعر بها دون أن تتكلم. لقد اضطرت للعودة من أجل ابننا، أمدرك أنت قسوة الحياة إذا أرغمت على العيش مع من لا تحب، حسام أنا لا أنام، لا أدري ماعساي أن أفعل؟



نهض حسام فجأة من مجلسه، وهو يصيح بتهكم ودهشة:

- ما هذا الفيلم الهابط الذي أشاهده؟ أرثي لحالها.. اضطرت للعودة.. لا أنام، مع العلم أنك لو فتحت قلب أختي نورا فلن تجد فيه سواك، لابد أن أتركك الآن، أصدقائي في انتظاري.

تركني حسام في ذهول ونشوة.. أحقًّا أقيم بقلبها، أهي مشتاقة مثلي؟ ولكن كيف أفسر دموعها بين أحضاني؟ تُرى ما بها؟! ثم جال بخاطري ذلك الزوج البائس الذي شاهدته على الشاشة الفضية منذ قليل وتذكرت كيف اضطر إلى أن يتظاهر بموته؛ ليكشف مكنون قلب زوجته، يبدو أن المرأة ستظل لغزًا لا يُحل إلا بحيلة.

الفصل الخامس عشر

هــي

كنت عائدة من التدريب أردد في نفسي ما نصحني به المايسترو، لِمَ نضيع أجمل سنين العمر في افتراضات وتكهنات ليس لها أساس؟ ولِمَ لا نواجه؟ فالمواجهة أقصر الطرق إلى الحقيقة. سأواجهه بقوة، وأسأله إذا كان فؤاده يحترق لوعة مثلي، وهل اشتعلت ثنايا صدره من لهيب الاشتياق.

وصلت الفندق، كانت الساعة العاشرة مساءً، جمعت رباط جأشي ووطنت العزم على المواجهة، وعندما دخلت الجناح.. كان هادئًا، وبدا لي أن شريف لم يصل إلى الفندق بعد، دخلت حجرة نومي وأوقدت نورها، وجدت حمزة نائمًا، إذًا لابد أن يكون شريف قد وصل ثم غادر مرة أخرى، ولكن كيف يترك الصغير وحده دون رعاية في الجناح، ألم يدُرْ بخلده لحظة ماذا سيكون حال ولدنا لو استيقظ فجأة من نومه ولم يجد أحدًا بجانبه؟ واشتعل الغيظ في صدري، هذا تصرف منه غير مسئول، هؤلاء الرجال يجهلون تمامًا أمورًا بديهية، ويرتكبون أخطاء



فادحة، ويدَّعون أنهم هم من يملكون الرأي السديد والحجة الرشيدة، بدأت أبحث عن محمولي في حقيبة يدي للاتصال به، ولكن فجأة ملأ سمعي أنينٌ عميقٌ، التفت ناحية مصدر الصوت، يا لوعتي! كيف أصف ما رأيت؟ وجدت شريف مستلقيًا على الأرض وقد ذهبت عنه كل صور الحياة، ركضت نحوه بلهفة مصحوبة بذعر، ودموعي تنهمر مني كسيل لا يتوقف، أخذتُ أهزه بقوة لعل الحياة تعود إليه، وأنا أقول:

- أفق يا حبيبي وانهض. ماذا حدث لك؟ طمئني عليك، لا أستطيع العيش بدونك، حياتي كلها ليس لها معنى إلا بك.

وعندما أيقنت أن لا فائدة.. نهضتُ باضطراب شديد؛ لأفرغ كل محتويات حقيبتي على الأرض، لأعثر على المحمول في أقصر وقت ممكن، أريد من يغيثني في الحال، أمسكت المحمول، وأمسك هو يدي!! التفت بذعر وجدته ماثلًا أمامي معافًى تمامًا بنظرته الجذابة، وابتسامته الحنون، جُنَّ جنوني، لِم يفعل بي هذا؟ فصِحتُ وأنا أضرب على صدره بغضب وأبكي:

- لماذا تفعل بي هذا؟! كدت أن أموت رعبًا عليك!

لم أهدأ حتى طبع على شفتيَّ قُبلة أعاد لي بها الحياة، وداويت جراحي بين ذراعيه في لحظة، أغمضتُ عيني واستسلمت له، خشعت له فرائضي، واستكانت له نفسي، وهدأت له روحي، وملأت مسامعي

أعذب الألحان، فسارت نبضات قلوبنا وأنفاسنا اللاهثة المشتاقة على نفس الإيقاع في لحن واحد في غاية الروعة!

إذا كانت السعادة التي غمرتني وأنا بين يديه هنا في هذه الدنيا، فما بال الجنة؟! ظننت أن جنتي وجدتها على الأرض في أحضان من هويت، ولم أكن أدري أن سعادتنا في هذه الدنيا محدودة بمحدوديتها، فهي مجرد لحظات عابرة.. لا تقف.. ولا تنتظر كهطول المطر، وقدوم الربيع، وتفتح الأزهار، وزقزقة العصافير. كل له أوان، ولا شيء يدوم.

***

هــو

مرت أسابيع وكأنها لحظات، شعرت فيها بخفة الطائر وهو يحلق عاليًا بجناحيه في كبد السماء، كنت أنعم عند ميلاد كل يوم جديد وأنا أرى حبيبتي نائمة في مخدعي، أتأمل ملامحها الرقيقة الهادئة، وأروح أسأل نفسي: هل أميرتي بين أحضاني؟ أنفاسها تداعب وجهي، عطرها يسكرني، وقربها يدخل إلى نفسي البهجة والسكينة، هل حقًّا عدنا؟ يا له من واقع رائع!



الشيء الوحيد الذي بات يؤرقني هو مرض حمزة، كم اعتصر قلبي ألمًا حينما كنت ألمس ضعفه، فجسده النحيل لم يعد يقوى كثيرًا على المكث في حدائق الأطفال ، وأضاع شحوبه بريق عينيه، وقد أدى وهنه المتصاعد إلي غيابه المتكرر عن الحضانة، هل حب والديك الجارف سلاح كافٍ يفتك بمرضك ويشفيك يا ولدي؟ بت أنتظر خبر المولود الجديد بفارغ الصبر، وأظنها كذلك، ولكننا لم نتحدث عن توترنا وقلقنا إزاء المولود الذي نترجاه، وكأننا على عهد غير منطوق بألا نتكلم في قدر الله.

وفي يوم، كنت أنتظر نورا في سيارتي أمام استوديو (حسن البحيري)، أخذت مجلسها بجانبي كالملكة، ولكن أرقني صمتها بعض الشيء، فسألتها:

- ما خطبك يا نورا؟ حبيبتي، هل هناك ما يضايقك؟

- لم يبق على موعد الحفل سوى أيام، وأشعر أنني لست مستعدة، مضطربة، والتدريبات تمر ببطء ورتابة، ربما لأنك لا تكون معي أثناء التدريب.

ابتسمت قائلًا:

- ليس لدي أي مانع للانضمام إلى فرقتكم، ولكن هل سيقبلني المايسترو؟

- وما الآلة التي ستعزف عليها؟

- الطبلة بالطبع، لا أعرف غيرها.

ضحكتْ قائلة:

- هل تعتقد أن فن الطبل لا يحتاج إلى دراسة؟ سيغضب إبراهيم عازف الدرامز إذا سمعك.

ابتسمتُ قائلًا:

- أحمد الله أن إبراهيم هذا ليس معنا، أخبريني.. أين تريدين أن نذهب لتناول الغداء؟

- مطعم بون أبيتيت.

قلت بتوجس:

- تعلمين جيدًا أني لا أميل إلى الذهاب إلى منطقة المهندسين.

قالت مستنكرة:

- وما المشكلة يا شريف؟ أريد الذهاب إلى هذا المطعم.

- حبيبتي، اختاري أي مطعم في القاهرة، ولكن بعيدًا عن المهندسين.

رمقتني بنظرة استياء، وقالت هامسة:

- كما تشاء.



قلت باستنكار:

- لا أفهمك، هل سنتشاجر من أجل مطعم؟

- لا يا شريف، أمرالمطعم لا يعنيني، ما يقلقني حقًّا هو عدم مصارحتك لي عن سبب خوفك من الذهاب إلى منطقة المنهدسين، أتظن أنني لا أشعر بك؟

كيف أصارحها بفعلتي؟ وما دار بيني وبين عمي، ولكن نورا أصبحت نفسي، فكيف لا تعلم نفسي بما فَعَلَته؟ لم أجد بُدًّا من أن ألقي عليها ما جثم على صدري سنين، بُحت لها بكل شيء أثناء تناولنا الغداء، التزمتْ الصمت بعدها حتى رجوعنا إلى الفندق، وأخذتُ أسأل نفسي.. هل صدمتها؟ هل سقطتُ من نظرها؟ هل أضعت حبها؟ جلستُ بعيدًا على كرسي منزوٍ في مدخل الجناح، خبأت وجهي بين راحة كفتيّ، وكأني متهم ينتظر الحكم بعد المداولة، فجأة شعرت بقطرات دموعها تسقط على يدي، ما إن فتحتُ عيني حتى وجدتها واقفة أمامي، جذبتني إليها وأخذتني بين ذراعيها بعذوبة ورقة، دفنتُ رأسي في صدرها أخفي بكائي وندمي، فتسارعت دقات قلبها، وهي تقول:

- لِمَ يا شريف؟ لماذا أخفيت عني الحقيقة كل هذه الأعوام؟! لماذا دفعتني إلى أن أسيء الظن بك وأعتقد أنك إنسان مستبد ومتسلط؟ لماذا لم تعطني الفرصة؛ لكي أحمل معك بعض معاناتك؟

قلت وقد امتزجت دموعي بدموعها:

- لأني أيضًا ظننت أنكِ لم تعودي تهتمين بي، واعتقدتُ أنك ستتخلين عني إذا عرفتِ، ويستحيل أن تشاركيني همي.

تصاعد نحيبها وهي تقول:

- لماذا تقتل الظنون أجمل ما فينا؟ لِمَ لا نعذر.

أخذتُ أُقبلها وأرتشف دمعها قائلًا:

- سامحيني يا حبيبتي.

قالت وهي تجذبني إليها بقوة، وبحنان غامر تقبلني:

- كفى بالله عليك، يجب أن تسامحني أنت؛ لأني لم أشعر بك وبمعاناتك.

ثم ابتعدت عني قليلًا، وقالت وهي تجفف دمعها:

- شريف، لا يمكن أن نظل هاربين من خطأ قد ندمت عليه، يجب أن تواجه عمك، اتصل به.. حدِّثه، بلغه أن ليس له أي حق في نفينا من الأرض.

غلبني النعاس يومها في أحضانها كالطفل الذي يتحصن في أحضان أمه.



الفصل السادس عشر

هـــي

استيقظت من نومي، ومددت ذراعي وأنا مازلت مغمضة العينين؛ لأتحسس حبيبي وأتمتع بقربه، ولكني وجدت مكانه خاليًا، فتَّحتُ عينيَّ على الفور، وجدته جالسًا على الكرسي الصغير بجانب فراشنا منكبًا على جهازه المحمول، وبدا لي أنه منهمكًا ينجز بعض أعمال شركته ، إذ أنه لم يلاحظ يقظتي، قلت له بابتسامة:

- صباح الخير يا أغلى حبيب.

نظر إليّ بابتسامة دافئة وقال:

- صباح الخير يا أجمل من رأت عيناي.

- ترى ما شغلك عني بهذا الشكل؟

قال وهو يضع جهازه المحمول جانبًا:

- لم يُخلق بعد ما يشغلني عنكِ.

اقترب مني بعدها، وأخذني بين أحضانه حتى كدت أذوب بين



يديه... ضمني بقوة كالغريق الذي يتمسك بطوق نجاة، لا أدري لِم شعرت بأنه يعاني، وكيف انتقل اليَّ عبر لمساته أنه يتألم، فصحت قائلة:

- حبيبي، ما بك؟

قال وهو يقبلني:

- لا تشغلي بالك، فأنا على ما يرام.

لم يكن رده مقنعًا بالنسبة لي، فقلت مستفهمة:

- هل لحق بعملك في الخارج أي ضرر؟

- على الإطلاق حبيبتي، اطمئني..

- إذًا ما بك؟

- لا شيء.. لا شيء البتة

هل هناك ما يخفيه عني، أم قلقي من نسيج خيالي؟أخذت أترجاه أن يفصح عما حلَّ به، ولم يستطع شريف أن يستمر طويلًا في كتمانه، وهل يمكن المرء أن يكتم شيئًا عن نفسه؟!





هـــو

استيقظت مبكرًا في ذلك اليوم، وكعادتي، أخذت أراقب حبيبتي وهي نائمة كالملاك حتى خشيت أن تحسدني عليها عيناي، فقمت بلطف؛ حتى لا أزعجها، وفتحت جهازي المحمول؛ لأنجز بعض أعمال شركة (براندنج)، وفجأة استوقفتني رسالة إلكترونية من ليندا، كدت أن أمسحها دون قراءة، فأنا على يقين أن قراءتها مضيعة للوقت، مؤكد أنها رسالة تافهة كتبتها لتجادلني عن شئ عقيم كعادتها معي، ولكن عندما وقعت عيناي على عنوان الرسالة، والذي كتبت فيه: ربما تكون هذه آخر رسالة! لم أجد بُدًا من فتحها، ثم قرأت الآتي:

شريف، أعتذر إذا كنت قد ازعجتك برسالتي، كم ترددت كثيرًا في إرسالها، ولكن ما شجعني على كتابتها حديثك معي من سنين فور تعيينك بشركتنا، كنت وقتها قد أثرت فضولي، فأردت أن أفتح معك أي موضوع للنقاش، فسألتك عن مناسك الحج في دينكم، فقلت لي: إن الحج هو زيارة إلى بيت الله، ولذلك يسعى كل مسلم ومسلمة إلى أداء هذه الزيارة بسجل ناصع البياض؛حتى يكون أهلًا لها، فمن كان قد اقترض مبلغًا من المال من صديق أو قريب ، رده اليه، ومن كان قد قطع رحمه، وصله،

ومن كان على خلاف تصالح، وهكذا، كم تأثرت بهذا المعنى، وحملته في قلبي، والآن وبعد أن اتخذت قراري بترك هذه الدنيا وما عليها؛ لأنها فقدت معناها وخاصة بعد رحيلك، بدأت أتأهب لزيارة الله.. والوقوف أمامه، وكنت أنت أول من أردت أن أتصالح معه..

شريف، أعلم جيدًا أنني قد ضايقتك كثيرًا، بل بلغ استفزازي لك مبلغه، ولكن يا صديقي، لا شئ في هذه الدنيا يحدث من تلقاء نفسه، دون دافع أو سبب، ومن حقك أن أطلعك على أسبابي، فربما يشفع لي هذا عندك و تغفر لي، أنت تعلم أنني أحببتك من أول يوم التحقت فيه بشركتنا، ومع الأسف لم تبادلني شعوري، وهذا حقك ولقد احترمته، ولكن ما لم تعرفه يا صديقي أنك لم تكن أول من يصدني، فاستفحل بداخلي شعوربعدم ثقة في النفس طاغٍ ومميت، كنت متعطشة لسماع كلمة إشادة أو إعجاب، فقد كنت أشعر كالمنبوذة بين زملائي، الجميع يعاملني كآلة.. لم يشعرني أحد أنني امرأة، بل إنسان له أحاسيس ووجدان، ولذلك بدأتُ مشاكساتي معك على أمل أن ألفت نظرك، رُبما تبتسم لي يومًا، أو حتى تفتقد مجادلاتي، ولم أكن أدري وقتها أن الفجوة بيننا في اتساع، أعذرني على ما بدر مني من مضايقات غير مبررة ، مع أنني في الواقع لم أُرِد لك إلا كل خير، فكما يقول المثل الإنجليزي، السفن الفارغة تحدث إزعاجًا كثيرًا، وهذا ما أحسسته



بداخلي، فراغ لم أستطع تحمله.. هل سامحتني؟ هل ستَمُر على ضريحي ذات يوم وتنثر الزهورمن حولي وتقول مبتسمًا: لقد عرفت هذه المرأة ذات يوم، كان لها قلب كبير أحبني وعقل صغير أضاعها؟

لقد اخترقت حروف رسالتها قلبي، ولأول مرة أشفق على ليندا، بل كرهت نفسي للحظات لأنني لم أحاول أن أفهمها، وأن أمد لها يد العون بمجرد كلمة أو حتى ابتسامة، كم حزنت لإصابتها باكتئاب حاد إلى حد أن هانت عليها نفسها، في الواقع لم أكن أتوقع أنني أحمل لها كل هذه المعزة والتقدير، وشعرت أنني في سباق مع الزمن، أخذت أفكر مليًا كيف أثنيها عما انتوته؟ ، هل أرسل إليها برسالة قد تنقذها من المصير المظلم الذي رسمته لنفسها، أو أكلم بيتر في الأمر حتى ينتبه لحالها ويدعمها، وذرفت عيناي دمعة، مسحتها فور استيقاظ نورا، حتى لا اشعرها بحالي، قالت نورا بصوتها العذب:

- صباح الخير يا أغلى حبيب.

شعرت وقتها أن حضنها هو الملجأ والحصن من كل ما عانيت من ضيق وحزن وألم، فأسرعت إليها، وجذبتها بين أحضاني، آه.. يا نورا لو تعلمين كيف تريحني لمساتك، كم أود يا حبيبتي لو أضمك إليَّ ما حييت؛ حتى يختفي خوفي وندمي وتندثر آلامي.. كم أتوق إلى أن نظل جسدًا واحدًا حتى انقضاء الأجل لتستكين روحي فيكِ وتذهب أحزاني.

ولأنها تذوب في دمي، شعرتْ بي دون أن أتفوه بكلمة، أو أن تفضحني دموعي، قالت بلهفة:

- حبيبي، ما بك؟

حاولت ألا أبوح لها بما حلَّ بي؛ حتى لا أثير فزعها، وظللت متماسكًا لبعض الوقت أمام محاولاتها المتصاعدة لمعرفة المزيد، ولكن في النهاية خار قوايا.. إذ هربت دموعي من محبسها ، وشعرت وكأني طفلًا يتوق إلى البوح لأمه بما يؤرقه ويكدر صفوه. أخذت أترقبها بقلق بالغ وهي تقرأ بدموعها رسالة ليندا، خشيتُ من أن تغضب أو أن ينتصر الشك في قلبها فيخرجنا من جنتنا، ماذا سيكون رد فعلها وهي تقرأ رسالة امرأة بائسة تفصح لي عما يجيش بقلبها.. يا له من موقف!

ولدهشتي قالت - بعد الانتهاء من قراءة الرسالة - ودموعها تتساقط كحبات المطر:

- عليك أن ترد عليها.

قلت لها مستفهمًا:

- ماذا تعنين حبيبتي؟ الستِ غاضبة مما تحمله الرسالة من مشاعر لزوجك؟



ضمتنى إليها بقوة وهي تقول:

- مشاعري متضاربة، كيف أغضب من امرأة أحبتك وأنا أهيم بك وأذوب فيك؟ الأوْلى أن أعذرها وأقدر مشاعرها، بل أرثي لحالها، لأنها تحملت كل هذا الجفاء منك، ولكن في نفس الوقت أحمد الله أن قلبك لم يدق لغيري.

ثم دفنت رأسها في صدري، وتصاعد نحيبها وهي تقول:

- إنها امرأة يائسة، وفي أمس الحاجة إلى دعم ومساندة، فلا تتجاهلها يا حبيبي، بل إرسل إليها برسالة، لتشد من أزرها، هذا ما يمليه عليَّ ضميري، على الرغم من حدة الموقف وصعوبته!

قلت وأنا أجذب جهازي المحمول:

- إذاً سوف نكتب الرسالة معًا، وندعو لها بالصبر والثبات.

الفصل السابع عشر

هـــي

ومرت الأيام تباعًا، وفي يوم كنت على عجلة من أمري بعد أن أوقفت سيارتي في أحد الشوارع المجاورة لاستوديو (حسن البحيري)، إذ تأخرت قليلًا عن موعد التدريب، وباتت أعصاب كل من أفراد فرقتنا بما فيهم المايسترو في توتر؛ بسبب وشك اقتراب موعد الحفل. يا إلهي، كم أخشى وقوفي على خشبة المسرح على الرغم من تكرار ذلك مرارًا! دخلت الاستوديو فرمقني المايسترو بنظرة استياء؛ لتأخري عن التدريب عشر دقائق، وعندما جلست على عرشي، بدأنا في عزف ألحان واحدًا تلو الأخر.

وفجأة دخل علينا شريف، لم أكن أتوقع مجيئه في الاستوديو، وخاصة أنه لم يحن موعدنا بعد، خشيت من غضب الماسيترو؛ لأنه لا يحبذ حضور الأغراب أثناء التدريب، ولكن كان له مع شريف شأن آخر، إذ رحب به وكأنه يعرفه، ثم أجلسه وبعدها أعطانا الإشارة لنستأنف التدريب، سرعان ما أخذتني عينا حبيبي إلى عالم آخر، عالم لا نعزف فيه بأصابعنا بل بأرواحنا ووجداننا، فعزفت بكل كياني، حتى



أوقف المايسترو التدريب قائلًا:

- أريد أن أسمع اللحن من نورا وحدها، أريدكم أن تستشعروا كيف يعزف الفنان بإحساسه.

وبدأتُ أعزف من جديد، يا لها من متعة أن تتحول كل المعاني والمشاعر بداخلك إلى أنغام، فالألحان عندي لغة أكثر تعبيرًا وإبهارًا من أي لغة، تستطيع من خلالها أن تنقل ما بداخلك من شوق وعشق وهوى بطريقة انسيابية سلسة لتصل مباشرة إلى القلوب. لم أرد أن أنتهي من العزف ولكنه انتهى، صفق لي الجميع، وشعرت بفخر وإعزاز يطلان من عيني حبيبي.

وبعد أن أكملنا تدريبنا هممت بالخروج مع شريف، ولكن ناداني المايسترو قبل رحيلي قائلًا:

- نورا، لمسة يديك على مفاتيح البيانو اليوم كلها إحساس. أريدك أن تعزفي لحن (الحلم) سولو يوم الحفلة.

ارتعدت قائلة بدهشة:

- سولو! بدون الفرقة؟ أيمكنني ذلك؟!

بدا لي أن المايسترو شعر بفزعي، فاستطردَ قائلًا:

- لا أريد منك سوى أدائك اليوم، وأعتقد أنك تستطيعين القيام به.

ثم قال بابتسامة وهو ينظر إلى شريف:



- لأني أظن أن أستاذ شريف سيحضر الحفل معنا.

احمرَّت وجنتاي، وجريت من أمامه؛ لألحق بشريف وأنا في غاية الخجل، إلى أي مدى يدرك المايسترو أحاسيسي، بل يتحدث عما بداخلي، وكأنه حفي به، يبدو أن لمسات أصابعي تفضحني إلى حد بعيد وخاصة عند من يُتقن فهم لغة الموسيقى.

مضينا أنا وشريف في طريقنا إلى حضانة حمزة؛ ولأن الفضول كاد يقتلني سألت شريف وهو يقود بي سيارته:

- هل تعرف المايسترو؟

- لقد قابلته مرة واحدة فقط.

- متى؟

- صباح اليوم.

- لِم؟

- لاستأذنه كي أحضر التدريب.

- لِم؟

قال لي ضاحكًا:

- لأني لا أستطيع العزف على الطبلة، فوجدت أن الحل الوحيد أمامي؛ كي أكون بجانبك هو حضوري التدريب كما كنت أفعل سالفًا، وطبعًا لم يكن هناك بدٌّ من استئذانه. نورا، هل أزعجك حضوري؟



- أبدًا، لكنه أثار دهشتي.

وضع يديه على كتفي، وقال بحنان:

- افتقدتك كثيرًا.

دسست رأسي في حضنه، وقلت ضاحكة:

- أنت مجنون!

كنت ملكة متوجة في هواه، ملكة تعشق مليكها بجنون، ينمو حبها له كل يوم إلى حد الذهول، في غيابه كنت أحضن ملابسه في اشتياق وحنين، فأنتشي بعطره وأترنح في عشقه، وكأني أرقص طربًا على موسيقى فاحت نغماتها من الجنة.. هكذا كانت أيامي معه، وهكذا كنت أذوب.

***

هــو

أحيانًا أتساءل لِمَ عشقتها كل هذا العشق.. هل عشقتها لما تحمله من صفات البراءة والجمال، أم لرجاحة عقلها ورزانته، أم لسعة صدرها ودماثة خلقها، أم عشقتها لضعفها وهي في أحضاني؟ وبدا لي في النهاية أنني عشقتها لكونها نورا. كنت أعلم أنها تملك قلبًا كبيرًا، يسع لعالم، ومع ذلك لم أتوقع رُقي موقفها من ليندا!

ومرت أيام أقلب فيها ما طلبته مني في رأسي، لابد من مواجهة عمي، مستحيل أن نظل مطاردين طول العمر، وما ذنبها هي؟ وما ذنب حمزة؟ لِم يهربان من ذنب لم يقترفاه! ربما أستطيع أن أساومه بمبلغ من المال حتى يحلني من وعدي معه، جمعت رباط جأشي والتقطت سماعة الهاتف أطلب رقم شركة عز الدين للدعاية والإعلان، سمعت صوتًا لم أميزه، يبدو أن سكرتيرة عمي الخاصة تغيرت بعد رحيلي، أراحني ذلك بعض الشيء؛ حتى لا أخوض معها في حوارات لا تفيد، قالت:

- شركة عز الدين للدعاية والإعلام، مساء الخير، أي خدمة؟

- هل يمكنك توصيلي بالأستاذ جاسر عز الدين؟

- إنه لا يأتي منذ فترة، ولكن يمكنني توصيلك برامي بك.

- شكرًا، سأتصل في وقت آخر.

- من معي على الهاتف؟

أغلقت الهاتف بسرعة، العهد الذي قطعته كان بيني وبين عمي، والمعركة التي دارت كانت بيننا، فلابد أن تكون المواجهة بيننا دون طرف ثالث حتى لو كان ابن عمي رامي.

وضعت عليّ ثيابي، واتجهت مهرولًا إلى منزل عمي، بات قلبي يدق من هول اللقاء، تسارعت أنفاسي كلما اقتربت من منزله، وأخذت



أسأل نفسي عن غيب قريب، ماذا سيؤول إليه اللقاء؟ لم أكن أتصور أن يكون كما دار، عندما دخلت حديقة الفيلا تذكرت طفولتي، وتذكرت كم لعبنا ولهونا أنا ورامي ونانسي، ثم تذكرت شبابي معهما، نظرت إلى الأشجار وجدتها شامخات كعهدي بها، وكأنها ترفعت عن محاسبتي، ثم لاحظت نانسي تخرج من مدخل الفيلا وهي تحمل طفلًا أظنه ابنها، لا أستطيع أن أنسى دهشتها حين وقعت عيناها عليّ، قالت بابتهاج:

- يا لها من مفاجأة سارة حقًّا يا شريف! يا له من زمن!

- كيف حالك يا نانسي؟ افتقدتك كثيرًا، افتقدتكم جميعًا.

وإذ بصوت زوجة عمي من الداخل تقول:

- لماذا جئت يا شريف؟ أي ريح أتت بك إلى هنا؟

أردفت نانسي قائلة برجاء:

- لا تغضب من أمي يا شريف. اعذرها، أبي مريض جدًّا، وأحوال الشركة لا تسر، تفضَّل.

تجاهلتُ تعليق زوجة عمي المستفز؛ لأن مواجهة عمي أصبحت حتمية، ودخلت البهو الرئيسي للفيلا، كل شيء كما هو إلا زوجة عمي التي زاد وزنها أضعافًا، وضاعت عيناها في كتل لحم وجهها، رثيت لحالها، وزال غضبي حين رأيتها، وقلت قولًا ليِّنًا؛ لعلي أطمئنها:

- أوحشتني يا زوجة عمي، ألف سلامة على عمي.

لم ترد، وتركت ابنتها تقودني إلى غرفة عمي، وعندما دخلتُ وجدته مُلقًى على فراشه بلا حول ولا قوة في غرفة مظلمة، تفوح رائحة المرض فيها من كل صوب، لم أكن أتخيل أن رؤيته بهذا الوهن ستؤلمني، اقتربت منه نانسي، وقالت بهدوء:

- أبي، شريف هنا ويريد مقابلتك.

فتح عينيه الذابلتين، ثم أعادت عليه ابنته الخبر، فقال بانزعاج وهو يلتفت حوله:

- لِم جئت يا شريف؟ هل جئت لكي تنتقم مني؟ لتشمت بي؟ أليس كذلك؟

قلت بهدوء، وأنا أربت عليه بحنان:

- كنت في زيارة سريعة إلى مصر من أجل ابني، فهو مريض جدًّا يا عمي، وقد رأيت أن من واجبي أن أمُرَّ للاطمئنان عليك.

رمقني بنظرة عطف، وقال:

- أرأيت حال عمك يا شريف؟ أرأيت كيف تبدلت أحوالي؟

- أنت على ما يرام يا عمي، ستشفى عن قريب إن شاء الله.

- ما أظن، هذا انتقام الجبار؛ لما اقترفته من ذنب في حقك وحق



أبيك، لقد انتهزت فرصة مرضه واحتياجه لتكاليف علاج من أدوية وعمليات أجراها في الخارج، وبدلًا من مساندته في أزمته، اشترطت عليه أن يبيع نصيبه في الشركة، لويت ذراعه كما يقولون؛ ولذلك يلوي الجبار ذراعي الآن، هذا عدله!

ما كنا نظن أنا وأمي أن ما فعله عمي كان على مرأى ومسمع من أبي، ظننا أن عمي قد قام بحيلة دنيئة على غير علمه، حقيقة.. لقد استغل عمي ضعف أبي ولم يقف بجانبه كما ينبغي على أخ أن يساند أخاه، ولكن لم يكن بالسوء الذي تخيلناه، ما دام اليوم كشْف حساب، عليّ أنا أيضًا أن أصارحه، أخذت مجلسي بجانبه، وقلت:

- أنا أيضًا يا عمي، أخطأت في حقك عندما..

قاطعني عمي قائلًا:

- لقد ضيقت عليك الحصار في العمل حتى تترك الشركة، أردت التخلص منك، وانتهزت فعلتك للضغط عليك حتى ترحل من البلد نهائيًّا، ذلك لم يكن من أجل عدم زواجك من نانسي فحسب، ولكن كنت أخشى المقارنة بينك وبين رامي، لم أرد أن تُسلط عليك الأضواء ويمكث هو بغباوته في الظل، ونسيت أننا كلنا على متن مركب واحد، لابد أن يتولى الدفة من يقدر على التحكم فيها، ابني قد ورطني ورطة كبيرة، ووقعت في ديون لا حصر لها، والشركة على وشك الإفلاس.

ذرفت دمعة لم أستطع حبسها، لم أكن أدري.. أأبكي عمي، أم أبكي العمر الذي ضاع في معارك وضغينة؟ أم أبكي الشركة التي بنيناها معًا وهي على وشك الانهيار؟! وضع عمي يده الواهنة على ركبتي قائلًا:

- أتبكي يا شريف؟

قلت مبتسمًا، وأنا أمسح دمعي:

- أبدًا، عيناي تؤلمانني، يجب أن أذهب إلى طبيب رمد في أقرب فرصة.

هممت بأن أرحل قبل أن أنتحب، فناداني قائلًا:

- مُرَّ عليّ يا شريف كلما سنحت لك الفرصة، وقِفْ بجوار أخيك رامي، الظفر لا يخرج من اللحم.

خرجتُ مسرعًا من عنده، أقطع الشوارع والحارات سيرًا، تلبدت السماء بالغيوم، ولم يمنعني هطول المطر من أن أجوب الطُّرق، وظللت أمشي على غير هدًى.

بدا لي أن خطيئة بني آدم كلها تكمن في سوء الظن، أليس ظنًّا - لا يليق بالله تعالي - أن يعتقد أبونا آدم أن الله قد نهاه عمَّا يجلب له الخير، فيعتقد أن الشجرة التي نهاه الله عنها تحوله إلى ملاك أو تجعله من الخالدين؟! هكذا حال الشيطان، يوسوس لبني آدم؛ ليسيئوا الظن كما



وسوس لأبيهم، فظننت أن عمي نهب حقي، وما كان لي حق عنده، فقد أعطى أبي نصيبه عن تراضٍ؛ لينقذ نفسه من الهلاك، كما ظن عمي أنني سأكون شوكة في ظهر ابنه فأبعدني أميالًا وأميال. ولم يضع في حسبانه أني قد أكون له السند والأهل، ثم دار بخلدي ما دار بيني وبين نورا، إذ ظننت أنها أرغمت على العيش معي، ولم أكن أدري أن الشيطان قد سقاها من كأس الظنون نفسها، فتجرَّعناه معًا وتعذبنا به.

عدت إلى الفندق منهكًا مُتعبًا وقد خارت قواي، دخلت الجناح فقابلتني نورا بعينين متألقتين فيهما بريق غريب، علمت أن هناك خبرًا مذهلًا ستزفه إليَّ، قالت وهي تحوطني بذراعيها:

- خمِّن الخبر الذي في جعبتي.

وكأنها سقتني من إكسير الحياة، رفعتُها من فوق الأرض، وصحتُ:

- حامل! أليس كذلك؟

الفصل الثامن عشر

هـي

لا أستطيع أن أصف كيف طرب قلبي وقلب زوجي لهذا الحدث الجلل. سيرزقنا الله بطفل في غضون شهور، فيكون لعيوننا قُرَّة، ولحمزة دواءً، بت أسأل نفسي هل يمكن للقلب أن يتحمل كل هذه الفرحة؟ الشيء الوحيد الذي بات يؤرقنا هو تدريباتي المستمرة للحفل، كنا نخشى على سلامة الحمل، وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أتملص من التزامي، وخصوصًا في ذلك الوقت الحرج، وكان زوجي متفهمًا للغاية، إلا إنني كنت أشعر بخوفه الشديد عليَّ وعلى الجنين من عينيه اللتين كانتا تتبعانني كل يوم وأنا أتأهب للخروج إلى العمل، كنت أطمئنه بابتسامة حنونٍ ونظرة دافئة، ثم أربت على كتفيه قائلة:

– ابنك يُصَبِّح عليك، ويقول لك لا تخَف يا أبي، فأنا على ما يرام، هل تستطيع سماعه؟

كان يضع أذنه على بطني الصغير، ثم يتظاهر أنه سمعه، ويقول مبتسمًا:



- صباح الخير يا حبيب أبيك، أرجوك أن ترعى أمك في غيابي.

وقبل الحفل بيومين.. انتظرت المايسترو بعد انقضاء التدريب الذي أجري في إحدى قاعات الأوبرا لشدة اقتراب موعد الحفل، وكان كل زملائي قد غادروا، شعرت وقتها بضرورة البوح للمايسترو بخططي المستقبلية، فكان لزامًا أن يعرف أنه سيكون آخر حفل أحييه معه؛ وذلك لعزمي على السفر مع زوجي في خلال شهر، لم يكن الأمر سهلًا كما اعتقدت، بل إنَّ تصريحي بترك الفرقة كان بمثابة عملية بتر لجزء غالٍ من حياتي.

كان قد جلس على البيانو، مستغرقًا في أفكاره، وبدا وكأنه بدأ في وضع لحنٍ جديدٍ، اقتربت منه فلاحظ وجودي، ابتسم قائلًا:

- لِمَ تأخرتِ حتى الآن؟ شريف سيقلق عليك.

- كنت أود أن أنقل إليك خبرًا.

- أفصحي عنه يا نورا، إني أسمعك.

صعبَ عليَّ إطلاق الخبر من محبسه، لم يطاوعني لساني على النطق، قال المايسترو مبتسمًا:

- يبدو أنه موضوع هائل.

قلت بدموعي:

- سنغادر البلد أنا وشريف في غضون شهر.

قال المايسترو بنبرة أسًى:

- فهمت يا نورا، سنفتقدك كثيرًا، أدعو لك بالتوفيق يا ابنتي.

قلت بتوجس:

- أأفهم من ذلك أنك لست غاضبًا؟

- بَلْ غاضب كمايسترو؛ لفقداني فنانة كلها مشاعر وأحاسيس، ولكني سعيد كأب؛ لإدراكي أن ابنتي ستكون سعيدة مع من تحب.

دمعت عيناه، فشعرت بحنان الأبوة الذي افتقدته منذ أن رحل عني والدي، وأردت أن أبوح له بمدى سعادتي؛ كي يسعد بها، فقلت:

- كم أنا سعيدة مع شريف! لا أعتقد أن السعادة قد غمرت أحدًا مثلي، لم أكن أتصور أن الدنيا يمكن أن تعطي المرء كل ما يريد في لحظة.

قال بهدوء:

- لا تكون دنيا.

أفزعني ردُّه، وشعرت بعدم الأمان، فقلت:

- لقد أخافني تعليقك.

- لِم يا نورا؟

- لقد قلت للتو واللحظة.. الدنيا لا تعطينا كل ما نريد، لا أدري لِمَ أخشى غدًا.



ابتسم قائلًا:

- هذا حال الدنيا، اللحظات الحلوة والمُرَّة مؤقتة، لكن من رحمة الله أن المآسي والأحزان تحمل في طياتها الخير الكثير، هل نسيتِ أن مرض حمزة أعادك إلى شريف، هذا وعد الله، ووعد الله حق، ﴿**إن مع العسر يسرًا**﴾[1]، ﴿.. **سيجعل الله بعد عسر يسرا**﴾[2]، المهم أن نضع كل ثقتنا في الله، وأن نحسن الظن به.

كان لقاءً وديًّا دافئًا إلى أبعد الحدود، خرجتُ من الأوبرا، واتجهت إلى أمي لزيارتها، فقد اتفقنا أنا وشريف أن نتقابل هناك بعد التدريب، احتفت بنا أمي احتفاءً بالغًا أما حسام فقد تغيب يومها لينجز بعض أعماله، وسررت لتحسن علاقة أمي المستمرة بشريف، فما عاد يقلقني زيارتنا لأمي في غياب حسام الذي كان في بادئ الأمر حائط صد لردود أفعالها غير المبررة تجاه زوجي، واتهاماتها المفاجئة له، فالآن صار شريف ابنها المدلل.

وبعد أن تناولنا وجبة الغذاء الشهية، أخذت أمي حمزة ليقضي معها قيلولة الظهر، جلسنا أنا وشريف في صالة المعيشة، ثم وقفتُ على مقربة من البيانو، وقلت بابتسامة:

- أتحب أن أعزف لك مقطوعة (الحلم)؟

(1) القرآن الكريم، سورة الشرح، آية 6

(2) القرآن الكريم، سورة الطلاق، آية 7



- أحب أن تستريحي من أجل ابننا الذي ننتظره، كفاك المجهود الذي تبذلينه في التدريب.

جذبني بحنان، ثم سحبني إليه وأجلسني على ركبتيه، تخللت أصابعه خصلات شعري برفق، فقلت له:

- شريف، هل ستظل تحبني طوال العمر؟

ابتسم قائلًا:

- كأنك تسألينني: هل ستظل شريف طول العمر؟

- ماذا تعني؟

- حبيبتي، حبك أصبح جزءًا مني، ترينه في ملامحي، بدونه لا أكون شريف.

اعتدلتُ في جلستي قائلة:

- أحقًّا إذا تقدم بي العمر، وابيضَّ شعري وهلكت أسناني، سأظل حلوة في عينيك؟

ابتسم قائلًا بكل ثقة:

- وسأظل حلوًا في عينيكِ؟

كم ممن يسيرون على أقدامهم أموات؛ لأنهم لم يذوقوا روعة الإحساس الذي أحياه مع شريف، فالحب يزين قلوب المحبين



ويصبغهم بالفطرة التي خُلقوا عليها، فيصبحون أكثر سلامًا ورأفة وعذوبة ووداعة، قلت:

- الحمد لله على نعمة حبك.

رمقني بعينيه العميقتين، فغرقت فيهما وهو يهمس:

- نورا، إنني مفتون بك، لا أرى غيرك.. هل تفهمين ما أعني؟

- وأنا أيضًا، لا أشعر بالسعادة والأمان إلا في حضنك.

ضمني إليه برفق، أما أنا.. فأردفت وقد دار بخلدي يوم الحفل الذي بات وشيكًا:

- شريف، لابد أن تحضر الحفل من بدايته، أشعر بالضياع في غيابك، الحفل موعده بعد يومين، هل تتخيل هذا؟

عانقت يده يديَّ وهو يقول:

- حبيبتي، ستكونين نجمة الحفل. ستبهرين جمهورك إن شاء الله، أنا مؤمن بك.

***

هــو

وجاء اليوم الذي كانت تنتظره حبيبتي بفارغ الصبر.. يوم الحفل.



كنت قلقًا عليها للغاية، إذ هاجمها الأرق دون هوادة، فلم يغمض لها جفن ليلتها، قالت لي إن هذا موعده إبَّان كل حفل ومواجهتها للجمهور، بت أسأل نفسي، هل سيتحمل الجنين هذا القلق؟ فأنا على يقين أن الحبل السري لا ينقل فقط الطعام والشراب وأسباب الحياة، وإنما ينقل ما تشعر به الأم من اطمئنان أو اضطراب، من فرح أو معاناة.

جلستُ في الصفوف الأمامية في المسرح الكبير بدار الأوبرا؛ حتى تراني حبيبتي وتطمئن بي، نظرتُ إلى القاعة، وجدتها تعج بالجمهور، أخذت أدعو ربي أن يثبتها على المسرح ويثبت جنينها في جوف رحمها، وفي الموعد المحدد رُفَع الستار، وظهر جميع أعضاء الفرقة كلٌّ على آلته، شعرت أن حبيبتي ملكة متوجة عليهم جميعًا، وجدت عينيها الزائغتين تمسحانِ القاعة بحثًا عني، وعندما رأتني ثبتت عينيها الخائفتين عليّ وكأن نظراتها سفينة عثرت على مرساها بعد أن ضلت طريقها طويلًا، ثم خرج علينا البحيري.. ثابتًا، واثقَ الخطى.. حيًّا جمهوره العريض بانحناء بسيط وابتسامة وسط تهليل وتصفيق حاد، وعندما هدأت القاعة، بدءوا في عزف ألحانهم البديعة تباعًا، وغابت نورا مع كل لحن وذابت فيه، رأيتُ انسجام الجمهور في عيونهم وحركاتهم.

غريب أمر الفن بكل ألوانه! فهو ممَّا يميز إنسانيتنا، ترى الفنان مبدعًا، خلاقًا؛ لأن فنه نابع من روحه التي نفخها فيه الخالق البديع، من



منا لا يعشق الفن؟! إذ تتوق أنفسنا به إلى السماء، وعشقنا للفن منذ قديم الأزل، منذ أن وطئ آدم الأرض... لا تغيير ولا تطوير لهذا العشق!

توقف العزف، وأخذ البحيري "المايك"، وتقدم خطوتين إلى جمهوره قائلًا:

- الليلة عندي لكم مفاجأة، ستستمعون إلى موسيقى (الحلم) ولكن بطريقة جديدة، لا أريد أن أقول مبهرة؛ لأن ذلك سوف تلمسونه بأنفسكم، ولا أطلب منكم اليوم سوى أن تسمعوا اللحن بقلوبكم.

صفق الجمهور إثر كلامه، ثم أردف قائلًا:

- الليلة، سأقدم لكم عزفًا انفراديًّا من المبدعة والفنانة الجميلة نورا.

في وسط تصفيق حاد تقدمت نورا وحيَّت الجمهور، شعرت بتوترها الذي كادت تخفيه، اضطربت نبضات قلبي لاضطرابها، ثم جلستْ مرة أخرى على البيانو، وبعد لحظات بدأت أصابعها تشكل وجداننا بلمساتها السحرية. يا إلهي! كان شعورًا يفوق كل تصور، نورا حبيبة عمري تعود فتداعب أحاسيسي من جديد، وكأن العمر توقف بنا عند تلك اللحظة حين ملكت فؤادي منذ سنين. نورا، بالله عليك أخبريني كيف استطعتِ أن تحكي روايتنا من خلال أنغامك؟ كيف وصفتِ أول نظرة، فابتسامة، فحنين، فلقاء؟! كيف كشفتِ عن حالي من ألم، ولوعة، وعشق، واشتياق؟! أول قُبلة أذابتني فيكِ، وكيف كان الفراق؟

كان لحنها يفوق احتمالي، فسمعت دوي دقات قلبي يمتزج مع عزفها، وأنفاسي اللاهثة المتعطشة للاقتراب. حبيبتي، توقفي. بالله عليك، ما عدت أحتمل أوتارك، وماعدت قادرًا على أن يعبث بي لحنك، يرفعني لأحلق في عالم أجهله، وأغيب فيه عن وعيي وإدراكي.

وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة، واستجاب ربي لدعائي، وانتهى اللحن. فهدأت بعده روحي، ثم عادت إلى جسدي.

استحوذت حبيبتي على تصفيق حار ومتواصل عبَّر به جمهورها عن امتنانه لمنحها إياه لحظات من نشوة وارتقاء. قامت وحيَّت جمهورها وعيناها تفيضان الدمع، ثم لاحظتها تهمس في أذن البحيري، فعاد وأخذ "المايك" من جديد قائلًا:

- نورا تريد أن تفصح لكم عن شيء بنفسها.

علا صوت التصفيق، وتقدمت نورا وأخذت "المايك" من البحيري، وقالت وهي تمسح دموعها:

- بالطبع يرجع الفضل لأدائي للمايسترو وإخوتي في الفرقة، لكن هناك من يجلس بينكم وقد منحني ذلك الإحساس الذي انتقل إليكم من خلال عزفي، وأود أن أقول له على الملأ: أشكرك؛ لأن كل لحظة أقضيها معك تساوي عمرًا.

علا التصفيق وتهليل الجمهور، وصفق لها البحيري الذي ترقرقت عيناه، وصفق لها كل أعضاء الفرقة، أردت وقتها أن أصرخ بأعلى



صوت، وأطلع العالم أني قد وجدتُ سكني في عينيها، وعرفت الله بين يديها، فلا يمكن أن يكون الحب عبثًا، أو وليد طينٍ أو تراب.

كم تمنيت أن يقف العمر عند هذه اللحظة! ولكن أوقاتنا كالمياه الجارية لا تتوقف ولا تبطئ إلا إذا تجمدت، وقلوبنا دافئة بحرارة الحب الساكن فيها، فكيف لزمانها أن يتجمد؟!

خرجتُ من المسرح متأبطًا محبوبتي، أردت أن أخبئها من جمهورها ومعجبيها الذين كانوا يستوقفوننا كل لحظة، خشيت عليها من المجهود، وأردت أن أطير بها إلى الفندق لتأخذ قسطًا من الراحة، وعند وصولنا إلى سيارتي، اقترب منها أحد معجبيها قائلًا:

- لقد أبهرتنا اليوم بفنك الرائع يا مدام نورا، أمَّا كلامك المؤثر فقد أبكاني والله.

تغيرت ملامح نورا في الحال، ورمقته بنظرة فزع غير مبررة، لم أعلم وقتها ما الذي أغضبها! ولِمَ اختفت بسمتها، جلستْ مسرعة في المقعد الأمامي، وقالت له:

- شكرًا.. شكرًا جزيلًا.

ثم نظرت إليَّ قائلة:

أشعر ببعض التعب، أعاني من مغص خفيف، هيا بنا بسرعة إلى الفندق يا شريف.



الفصل التاسع عشر

هـــي

خرجت أنا وأمي من عيادة الطبيب بعد أن أجرى لي فحصًا شاملًا في زيارتي الثانية له، وكانت أمي قلقة.. مضطربة منذ إصابتي بنزيف منذ ثلاثة أسابيع، أي بعد الحفل بيوم واحد، وقد أوصاني الطبيب في زيارتي الأولى له بالهدوء والراحة التامة، أما اليوم فقد طمأننا أن كل شيء عاد على ما يرام، ومع ذلك لم يبرح القلق أمي؛ إذ قالت لي بحدة:

– لم أكن راضية عن المجهود الذي بذلتِهِ في الحفل، لِم لم تنصتِي إليَّ يا نورا؟

قلت بسأم؛ لأنه لم يكن بيدي شيء:

– أمي، لقد تحدثنا مرارًا في هذا الموضوع، وقلت لك إنه لم يكن في استطاعتي أن أخذل المايسترو والفرقة.

قاطعتني أمي:

– وماذا سنجنيه منهم إذا حدث لك أو لابنك أي مكروه؟



- لِمَ كل هذا التشاؤم يا أمي؟ ألم يقل لنا الطبيب الآن إن حالتي قد تحسنت؟ ثم من قال لكِ إن النزيف كان بسبب الحفلة.

لم أدرِ حقًّا سبب النزيف، هل كان المجهود والتوتر يوم الحفل سببًا في ذلك، أم فزعي لرؤية إيهاب وسماعي تلميحاته المستفزة في حضور شريف؛ له اليد العليا فيما حدث؟ وربما كان هناك سبب آخر لا أعرفه. ما أظن أن شريف قد لاحظ القلق الذي استحوذ عليَّ عند رؤية إيهاب، ولم أخبره أيضًا عن النزيف، فما الداعي لإثارة قلقه؟ ما دام كل شيء تحت السيطرة.

مررنا على حضانة سوفت روز؛ لنأخذ حمزة، وعند وصولنا إلى منزلنا في الدقي، جلسنا في صالة المعيشة في انتظار شريف الذي تأخر علينا؛ لإنجازه بعض أعمال لشركته في الخارج، أما أمي فبدأت تضع المأكولات الباردة على مائدة الطعام، وبدأ حسام يمد يده ليلتقط منها ما يسد جوعه، فنهرته أمي وهي تضربه على يده قائلة:

- انتظر حتى حضور زوج أختك.

قال حسام بضيق:

- أمر طبيعي أن تنتظر نورا زوجها، لكن ما ذنبنا أنا وحمزة؟

قالت أمي:



- حمزة، ليس من شأنك. لقد أكل، أما أنت فيجب أن تمسك نفسك عن الأكل.

قال حسام ، وهو يحاول التقاط مزيد من اللقم:

- ما كل هذا الظلم يا أمي؟! لا تسمحين لي بالزواج، ولا تسمحين لي أيضًا بالأكل!

قالت أمي، وهي متجهة إلى المطبخ:

- ليقول الناس إنه أخذ امرأة في سن أمه!

تابعها حسام وهو يقول:

- هل تظنين حقًّا أنك في عمر هايدي؟

ثم رمقني بنظرة استجداء قائلًا:

- شاركينا يانورا.

قلت بابتسامة:

- قلت لك رأيي من قبل، هايدي لا تناسبك، صدقني. هي متحررة ولها تطلعات، وفوق ذلك أنت تصغرها، يعني في النهاية لن ترضى بك، فلا داعي للإحراج.

جلس حسام بجانبي قائلًا:

- لِم لا نسألها بدلًا من تصور رد فعلها؟



صاحت أمي داخل المطبخ:

- اسكت، وكفاك ثرثرة.

دق محمول أمي، وكان شريف يعتذر لها عن الحضور متحججًا بوعكة صحية، وقد أثار ذلك دهشتي وقلقي في آن واحد، لِمَ لم يطلعني على مرضه؟ هل أخفى عني مرضه كما أخفيت مرضي عنه؛ كي لا يثير قلقي؟ وماذا به؟ اتصلت به عبر محمولي كي أطمئن، فرد قائلًا بصوت خفيض أثار مزيدًا من القلق:

- نورا، لن أستطيع الحضور.

قلت بلهفة:

- حبيبي، لِم لم تتصل بي لتخبرني عن أحوالك؟ طمئني، ما الذي تشعر به؟

قال وهو ينهي الاتصال:

- وما الفرق؟

تركت حمزة مع أمي ونهضت مهرولة لأطمئن على زوجي، وأنا في طريقي أخذت أتساءل: ماذا كان يعني؟ وما به؟ يبدو أنه محبط وليس مريضًا كما ادَّعى، ترى هل هناك خبر ما متعلق بعمله في الخارج أفزعه، كيلومترات قليلة وسوف أعرف.





هــو

ما زالت آخر كلمات عمي ترن في أذني، (الظفر لايخرج من اللحم)، دفعتني كلماته إلى الذهاب إلى شركة عز الدين للدعاية والإعلام، ومقابلة ابن عمي رامي، أطلت الدهشة من عين الموظفين القدامي، كما أطلت من عيني ابن عمي على الرغم من علمه بقدومي إلى مصر، وبعد أن أجلسني في مكتبه المغلق.. سألته عن أحواله، فأطلعني على كم المشاريع الخاسرة والعملاء الذين فقدتهم الشركة؛ بسبب سياساته المتهورة وغير المسئولة، وبدا لي وكأنه فرُّوج ظن أن السماء قد وقعت عليه لسقوط ورقة شجر على رأسه، إذ كانت لجميع مشاكله حلول عندي، كم صهرني العمل في الخارج وزاد من قدراتي! جلست معه ساعات وساعات أضع أمامه خططًا وأفكارًا لتحسين أوضاع شركته، ثم فاجأني قائلًا:

- شريف، هل يجب أن تسافر؟

قلت بابتسامة:

- لا أستطيع أن أبعد عن عملي أكثر من ذلك.

- لِمَ لا تعمل معنا من جديد؟ شريف، أنا مستعد أن أقبل كل



شروطك كي تبقى معنا.

قلت له ، وأنا أربت على كتفيه:

- لا توجد شروط بين الإخوة يا رامي، الظفر لا يخرج من اللحم، وإذا احتجتَ إليَّ في أي استشارة.. فاتصل بي على الفور، ستجدني بجانبك.

شعرت بارتياح غريب لمساعدتي لرامي، ربما لشعوري بالتزامي نحوه بسبب صداقتنا القديمة وصلة القرابة، وربما لأني كنت أرثي لقدراته المحدودة، أو لأن خسارة صرح عز الدين تؤلمني، وربما لأني أخيرًا شعرت أني غسلت نفسي مما اقترفته من ذنب في لحظة ضعف وإحباط.

اتجهت مسرعًا إلى كافيه قريب من الفندق؛ لكي أنهي بعض الأعمال الخاصة بشركة (براندنج) ، ولكن ومع الأسف لم أنجز عملي بالكامل كما ظننتُ لاقتراب موعدي مع نورا، فاتجهت إلى الفندق قاصدًا جناحي لتغيير ملابسي؛ لألحق بنورا وحمزة في الدقي حيث دعتنا أم نورا على وجبة الغداء، وعند مغادرتي الفندق، ناداني موظف الاستقبال قائلًا:

- أستاذ شريف، يوجد من ينتظرك في قاعة الاستقبال. قد حضر للتو ويريد مقابلتك لتسليمك بعض المستندات.



ثم أشار إلى رجل جالس وحده في ركن من أركان الاستقبال لم أعرفه من الوهلة الأولى، بدا لي أنه من رجال الأعمال، ولم يسعني إلا أن أقترب منه وأقدم له نفسي لأكتشف أمره، فمددت يدي له، وأنا أقول:

– مساء الخير، أنا شريف عز الدين، أتريد مقابلتي؟

رمقني الرجل بنظرة خاطفة، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يمد يده لي قائلًا:

– مساء الخير أستاذ شريف، أقدم لك نفسي، أنا الدكتور إيهاب شكري. أردت تسليمك نتائج تحليلات خاصة بابنك حمزة.

لقد أثار الرجل دهشتي، لم تخبرني نورا عن طبيب آخر لحمزة غير د. عامر عبد الرحيم، وحتى لو كان طبيبًا استشارته نورا ولم تبلغني عن أمره، فهل يمكن أن يقوم بتوصيل تحاليل مرضاه للمنازل؟! وازدادت حيرتي عندما قرأت تاريخ التحاليل؛ إذ كانت بتاريخ قديم، فقلت:

– أشكرك، ولكن لست أفهم، هل أنت طبيب متخصص في أمراض الدم؟

ضحك قائلًا:

– لا، لا. لست طبيبًا، أنا رجل أعمال، ولي شركاتي في مجال الاتصالات.



قلت ، وقد ضقت ذرعًا من ألغاز الرجل:

– لا أفهم شيئًا، ما علاقتك بتحاليل ابني؟

قال بهدوء:

– اجلس، وسوف أشرح لك كل شيء.

جلست متوجسًا، ثم أردف قائلًا:

– أستاذ شريف، لقد كنت مرتبطًا بنورا، وكنا على وشك الزواج، حلمنا معًا بمستقبلٍ رائع، كان من سابع المستحيلات أن تفكر في العودة إليك، حتى عرفنا أن رجوعها لك هو الحل الوحيد لشفاء ابنها.

نهضت من هول ما سمعت قائلًا بحدة:

– ما هذا الهذيان؟!

قال وهو يجذبني لأجلس:

– هذه هي الحقيقة، ترجتني مرارًا؛ لأسأل في كل المراكز الطبية في أوروبا وأمريكا عن أي حل لعلاج حمزة؛ ليكون بديلًا عن رجوعها إليك، جاءني أخوها حسام بكل الأوراق الخاصة بحالته، وكان أملنا أن نَستدل على هذا العلاج البديل، لكن مع الأسف لم تكن هناك أي بدائل.

ذرف الرجل دمعتين وهو يقول:

– أتذكر جيدًا رعشة يدها في يدى في آخر لقاء لنا، أدركت وقتها أنها لحظة الفراق، ليس بيدنا شيء.



ثم مسح دمعه، و نظر لي بابتسامة قائلًا:

- لكن عند رؤيتها يوم الحفل، وشعوري بسعادتها معك، قررت أن أطوي صفحتها وأنسى، وأتخلص من أي شيء قد يذكرني بها، ومن ضمنها تحاليل حمزة، ولكن - لوهلة - خشيت أن تكون مهمة عندكم؛ لذلك جئت اليوم لإعادتها، لأن أخلاقي ومبادئي لا تسمح لي أن أقابلها وهي في عصمة رجل آخر، حتى ولو كان الغرض من المقابلة مجرد إعادة التحاليل.

والآن تذكرته، وتذكرت تعبيرات وجه نورا حين دنا منا ليلة الحفل، وتذكرت كلماته القليلة، فقد قال إن كلام نورا أبكاه، كيف ولِمَ تخفي عني نورا أمره؟ أكانت تحلم به زوجًا؟ أكانت تتوق إلى أحضانه، أخدعتني حين قالت إن قلبها لم يدق لغيري؟ أهمساتها لي بالعشق والهوى كانت مجرد كلام؟ ألوعتها في بعدي وعذابها كان مجرد ادعاءات؟ هل رجوعها لي كان رغمًا عنها؟

جن جنوني، وتركتُ الرجل بتحاليل ولدي، وصعدت إلى جناحي أختبئ بين جدرانه، فما أردت أن يراني أحدٌ وأنا في هذه الحالة، وقد أشعلت نار الغيرة صدري، وأخذت تنهش في نفسي، وتقطع أحشائي، توسلت إلى الله أن يفقدني حواسي، فلم أعد أقوى على البقاء حيًّا، فالموت أرحم من حياة زائفة، وحبيبة غادرة!



الفصل العشرين

هــي

انتابني القلق على زوجي، وكنت في حيرة من أمره، وازدادت حيرتي وأثير فزعي أكثرَ عند دخولي جناحنا في الفندق، كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة؛ إذ لم أجد شيئًا على حالته، فقد بُعثرت أواني الزينة على الأرض، وتبعثر الأثاث من مكانه، وكأنه قد وقع بالغرفة صراعٌ ضارٍ بين ديناصورات، وجدت حبيبي جالسًا منزويًا، مغمض العينين، اقتربت منه وقد دق قلبي خوفًا وهلعًا، فكنت عاجزة عن أن أجد مبررًا أو تفسيرًا لما يجري من حولي، همست:

– ما بك يا حبيبي؟! ماذا حدث؟ طمئن قلبي الملهوف.

فتح عينيه، ولكن غاب عنهما حبيبي، قال وهو يصب فيضان غضبه عليَّ:

– نورا، هل تعرفين أحدًا يُدعى إيهاب شكري؟

تلعثمت من هول المفاجئة، ووقفت حروف الكلمات في حلقي، فأردف قائلًا، وهو يرجمني بكلمات أقسى من الحجارة:

- لقد انتهينا، كانت علاقتنا محدودة بحجرة النوم من أجل إنقاذ ولدنا، وأعتقد أن كلًّا منا قام بواجبه على أكمل وجه!

لم أكن أتصور أن تنتهي أجمل قصة حب بهذا القبح! فقد أشعل فتيل غضبه نارًا حارقة في جسدي كله، تركته رمادًا متناثرًا، أخذت أرتعد بل أنتفض، وأسناني تصطك، ودموعي متحجرة في مقلتيَّ، خرجت من عنده تاركة أشلاء وأطلال ذكراياتنا في كل ركن من أركان الحجرة، وكأني نثرت بقايا قلبي الجريح ونفسي المهزومة في فراغها، لم أكن أقوى على قيادة سيارتي، أطلقت ساقي للريح، شعري يتطاير في كل اتجاه، أعدو بين السيارات والمارة في الشوارع المتعرجة وغير الممهدة بالمدينة، أسقط حينًا وأجري بخطوات مترنحة حينًا آخر، متقطعة الأنفاس.. صدري يدق دقات عنيفة، أتوسل ربي أن أستيقظ من هذا الكابوس. وصلت إلى بيت عائلتي بالدقي، لم أقوَ على انتظار المصعد؛ فصعدت السلالم، أمسكت "درابزينه" لأستعيد اتزاني، وعندما وصلت شقتنا لم أكن في حالة تسمح لي بإخراج المفاتيح من حقيبة يدي، فأخذت أدق الباب بعنف حتى فتح أخي، ارتميت في أحضانه، وأخذت أبكي بكاءً حارًّا بين يديه وطعم المرارة في حلقي، خرجت أمي مهرولة من الداخل، ثم صاح أخي بانزعاج:

- ماذا حدث يا نورا؟! تكلمي.



وكانت آخر كلمات نطقت بها قبل أن أغيب عن الوعي:

- لقد افترقنا أنا وشريف إلى الأبد!



هــو

مازلت في جناحي حبيس أفكاري، أشعر وكأن الشمس غابت عن كوكبنا، والهواء تخلى عن فضائنا، وأخذ الظلام الذي خيم على نفسي يجلدني بل يخنقني بلا رحمة، أستجديه أن يتركني فلا يرحل، ألقيت نفسي على الكرسي جثة هامدة بلا حراك، دق جرس الهاتف مرارًا وتكرارًا ولكني لم أهتم، لم تمر دقائق حتى سمعتُ نقرًا على باب الجناح، قمت بخطى زاحفة أتحسس طريقي إليه، وعندما فتحته وجدت حسام أمامي، ومعه أحد موظفي الاستقبال.

قال الموظف معتذرًا:

- أستاذ شريف، أنا آسف. الأستاذ مصمم على مقابلتك، حاولنا الاتصال بك كثيرًا من الاستقبال دون فائدة.

أشرت إليه أن يرحل، اقتحم بعدها حسام الغرفة، وأغلق بابها قائلًا بحزم:



- ما الذي فعلته بأختي، أريد أن أفهم، لم أرها منهارة بهذا الشكل من قبل.

قلت بغضب:

- هي التي خدعتني، وقد خدعتني أنت أيضًا. كان يجب عليك أن تخبرني بخبر خطبتها في بريدك الإلكتروني.

تغيرت نبرة صوته قائلًا:

- شريف، إيهاب كان بالفعل يريد خطبتها، لكن..

قاطعته قائلًا:

- لكن أختك رفضته؛ كي تنقذ ابنها.

ثم أردفت بعبارات انطلقت من قلب جريح دون تدبر:

- وربما رسا المزاد على من سيدفع أكثر!

قال حسام بغضب بالغ:

- من الواضح أنك لست في حالتك الطبيعية. سأرحل الآن، ولكن إذا شئت، اتصل بي عندما تهدأ وتستعيد اتزانك.

خرج حسام من الغرفة وهو يدب الأرض بقدميه، وعندما كنت على وشك إغلاق الباب وراءه، لمحت جرائد اليوم معلقة بمقبض الباب، سحبتها ورميتها على المنضدة أمامي، غلبني النعاس في وضح



النهار، وكان عصِيًّا في جوف الليل، رأيت حمزة ابني يبكي بحرقة ومرارة في أحلامي، استيقظت مفزوعًا. أزحت بيدي دموعًا ملأت مقلتي – وأنا نائم – ثم بدأت ألملم أمتعتي فكنت على وشك أن أغادر البلد نهائيًّا، لا أعلم ما الذي دفعني إلى الجريدة والتى كانت موضوعة في مكان متميز يدعوني للقراءة، قلت: ربما أجد بقراءتها مفرًّا من أحزاني وهمومي ولو لبعض الوقت، كالعادة كانت الأخبار كلها تنم عن استياء وانهيار بات وشيكًا في كل نواحي البلاد.. مثل حالي تمامًا، قلبت صفحاتها واحدة تلو الأخرى حتى استرعى انتباهي خبرٌ لم أجد له دموعًا في مآقي عيني، إنه خبر وفاة عمي مكرم، وكان العزاء في كنيسة ماري جرجس.

ذهبت إلى الكنيسة في موعد العزاء، أخذت أبحث في وجوه الحاضرين عن ابنه سامح، أدركته وهو يبكي بحرقة ويخفي وجهه بكفيه، دنوت منه قائلًا:

– البقاء لله.

تطلع إليَّ من خلال دموعه، ثم ارتمي في حضني قائلًا:

– أشكر الله على قدومك، كم دعوته كي تأتي.

ربت على كتفيه، فأردف:

- لقد مات. مات دون أن يعرف كم أحببته، وكم ندمت على ما اقترفته في حقه.

قلت محاولًا تهدئته:

- لعله قد عرف الآن، فهو في دار الحق.

قال وقد بدأ ينتحب؛ مما أدى إلى صعوبة تفسير كلماته:

- لِمَ يا شريف؟، لماذا نقسو حين نغضب، لماذا نذبح أقرب الناس؟ لماذا حرمته مني؟ من أجل ماذا؟!

ثم أخذ يهمس وهو يجفف دمعه:

- **"طوبى للرحماء فإنهم يرحمون"**[1]

ظلت كلماته تدوي بداخلي، ونحيبه يرن في أذني وأنا في طريق العودة، ثم أخذت أردد في نفسي ﴿..**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾[2].. حقًّا.. الرسالات في أصلها واحد، جاءت تحمل الخير والسلام للأنفس البشرية، ولكننا في ثورة غضبنا وذروة غرورنا ننسى، بدا لي أن الجنة يمكن أن نستنشق نسيمها هنا على هذه الأرض إذا غفرنا وعذرنا وأحسنا الظن، وجهنم أيضًا تبدأ من هنا، تبدأ بكي صدر من امتلأ قلبه بالحقد والغل والغيرة بنار حارقة تلازمه حتى بعد رحيله عن هذا العالم.

(1) الكتاب المقدس، متى إصحاح 5: آية 7

(2) القرآن الكريم، سورة النور، آية 22



أوقفت السيارة عند كورنيش النيل بالعجوزة؛ لأستنشق هواء القاهرة، وأملأ عينيَّ منها، وبدأت أمشي على قدميَّ شارد الذهن، أنظر في وجوه المشاة والجائلين وراكبي السيارات، فهم يضعون الآيات على عرباتهم ويعلقونها داخل محلاتهم ليتباركوا بها، ولكنهم في حالة تأهب وتحفز مستمر لأي شجار مع أي عابر، ولا يتورعون أن يصل نزاعهم إلى أبعد مدى! فما من أحد يعذر.. أو يصفح.. أو يظن بالآخر خيرًا. هكذا أصبحنا، ففقدنا جزءًا كبيرًا من إنسانيتنا على الرغم من تقديسنا لكلام الله لأننا لا نتبعه! أين نحن من عباد الرحمن ﴿..**الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾[1]؟! ثم رحت أسأل نفسي: كيف ننتظر من الله أن يرحمنا ونحن لا نرحم؟! فصغيرنا لا يرحم شيخنا.. وقوينا لا يرحم ضعيفنا.. وحلت الغلظة والقسوة في سلوكنا وقلوبنا محل الدماثة والرأفة. كم تغيرت ملامحنا، فهل من رجوع؟

رحت أتأمل نفسي؛ محاولًا تقييمها باستعراض سني عمري في لحظات بأفراحها وأحزانها، ونجاحاتها وإخفاقاتها، بآمالها وآلامها، تذكرت كراهيتي لاستفزازات ليندا، وكيف عجزتُ أن أفهم من خلالها قلة حيلتها وضعفها، ثم جال بخاطري خوفي وهلعي حين كنت أجوب المناطق القريبة من شركة عمي، فتصورته وحشًا كاسرًا، خشيت إذا رآني أن يتصارع معي ونعود

---

(1) القرآن الكريم سورة الفرقان، آية 63

إلى عراكنا القديم، فيفتك بي، ولكن الحقيقة خالفت ظني، فلم يكن ذلك الوحش الذي سكن مخيلتي.. بل كان مسالمًا وديعًا يحاول أن يمهد طريقًا لينتصر ضميره، تذكرت حالي مع نورا، وما فعل بنا سوء الظن في الماضي، إذ لم يعذر أحد منا الآخر.. وضاقت قلوبنا فلم يعد فيها مكان للغفران، فصار فراقنا محتومًا وعذابنا لا مفر منه، ثم تذكرت حالي اليوم، لمت نفسي، لقد حكمت علينا بالفراق دون أن أسمع دفاعها، فأصدرت الحكم بقتلي وقتلها بنفس الرصاصة، ثم سألت نفسي: لماذا غضبت؟ ما الضرر في أن تتوق نورا لمن يساندها في محنتها ويؤنس وحدتها؟ فقد اخترتُ بكامل إرادتي أن أغيب عنها، ترى هل أغضبني إخفاؤها عني الحقيقة؟! ولكن لِم لا ألتمس لها بعض العذر؟ فقد أمسكتْها خشية أن تخدش مشاعري وكبريائي، مؤكَدٌ أن الذي أثار غضبي ظني الذي عاودني بأنها تزوجتني رغمًا عنها، ولكن.. أليس الشوق بعينيها وحرارة شفتيها ولهفتها عليَّ دليلًا وافيًا على ما يجيش بقلبها؟ أليست ألحانها ولمسات أصابعها وسكناتها بل وكل حركاتها تهتف بحبي؟ كيف حجبت الغيرة عني عمق مشاعرها وأعماني الغضب عن الحقيقة التي باتت تصرخ بها كل ذرة كوَّنتها؟!

عند عودتي إلى الفندق كانت قد هدأت ثنايا نفسي، فتحت نافذة الغرفة ومددت بصري إلى السماء المرصعة بنجوم براقة ساحرة كاللآلئ المنثورة، يا إلهي، ما أجملك. كم خلقت لنا الكون بديعًا!ولكن بأيدينا



نخرب وندمر، أدعوك أن تغفر وتصفح، فقد ظلمتها وظلمت نفسي!

أشارت عقارب الساعة المعلقة على الحائط إلى أن الوقت لا يزال متاحًا الليلة؛ لأصلح ما أفسدت البارحة، يجب ألا أتأخر عنها ولو دقيقة، تذكرت سامح وندمه من حيث لا ينفع الندم، وأنا لا أرغب أن أكون ممن بكوا على اللبن المسكوب؛ فاتجهت سريعًا إلى منزل حبيبتي بالدقي، وأخذت أدق جرس شقتها، ولكن ما من مجيب. بدأت أنقر الباب.. دون فائدة، فأيقنت أن لا أحدٌ بالمنزل، تعجبت لغيابهم في هذا الوقت المتأخر، أخرجت محمولي من جيبي واتصلت بها، وجدت محمولها مغلقًا، اتصلت بأخيها حسام، فسمعت صوته بنبرة أسى وحزن يقول:

- نعم.

- حسام، أين نورا؟

- فيم تريدها؟

- كي أعتذر لها، وأطلب منها أن تسامحني.

توقف لوهلة، ثم قال:

- نحن الآن في مستشفى دمشق.

فقلت بهلع:

- لِمَ يا حسام؟ ما الخبر؟

- نورا فقدت الجنين، وللأسف ازدادت الحالة سوءًا بسبب نزيف حاد، ولم يفلح الاطباء في إيقافه، فا..

توقف حسام، وأجهش بالبكاء، فصحت قائلًا بفزع:

- ماذا حدث بالله عليك؟

قال بعد برهة:

- اضطر الاطباء أن يستأصلوا لها الرحم!



الفصل الحادي والعشرون

هــي

لم أفقد فقط الجنين الذي بات تعويضه محالًا، بل فقدت أيضًا سبل النجاة لولدي حمزة، ترقرقت عيناي وأنا أنظر إلى صغيري وهو نائم على ركبتي أمي في الكرسي المقابل لفراشي داخل المستشفى، وأخذت أسأل ربي أن يصونه ويحفظه، فلم يبق لي غيره، ثم قال حسام لأمي وهو يهم بالوقوف:

- أمي، تعالي لأوصلك إلى البيت، لقد غلب حمزة النعاس، لابد أن ينام في سريره، وسوف أعود إلى نورا بعد ذلك.

قالت أمي بلهفة:

- لا أستطيع ترك نورا يا حسام، خذ أنت ابن أختك، وأنا سأواصل معها حتى الصباح.

قال حسام مقاطعًا:

- ذلك لن يجدي يا أمي، لن تستطيعي المواصلة، لابد أن نقوم أنا وأنتِ بـ "نوبطشيات" على نورا، سأقضي معها الليل، وأنتِ تعالي لها بالنهار.



بدأ الإرهاق والإجهاد بالظهور على ملامح أمي إثر يوم شاق طويل؛ فاستسلمت لرغبة أخي، وخرجوا الثلاثة تاركين مكانهم للخواء والهم والحزن في كل أرجاء الغرفة، دخلت إحدى الممرضات بعد رحيلهم بدقائق تقول بابتسامة:

- زوجك جاء لزيارتك.

لا. لا أقوى على رؤيته، فيداه ملطختان بدماء ولدنا الذي انتظرناه بشوق وحنين.

لم تمهلني الممرضة إذ وجدته واقفًا أمامي بابتسامته التي فقدت سحرها، فلم تزل ليلي السرمدي، ولم ترسل له قمري، وبدأت أبكي بكاءً هستيريًّا وأنا أقول:

- اطمئن يا شريف، لن تضطر إلى أن تعود إليَّ من أجل علاج حمزة بعد اليوم، أصبحت لا أملك أن أنجب مرة أخرى. أنت الآن حر طليق، سافر وعِش حياتك.

***

هــو

كان من الصعب رؤيتها في هذه الحالة.. محبطة.. مرتبكة، شفتاها ترتعدان.. لونها شاحب.. عيناها ذابلتان.. دموعها تهطل كسيلٍ لا يتوقف، لقد ظنتْ أنها قد منحتني الحرية في بُعدها، ولا تعرف أن حياتي بدونها سجن كبير.



قلت لها، وأنا أنطق بكل جوارحي:

- لا أستطيع أن أبعد عنكِ لحظة، أنا أحبك.

قالت، وهي تدير وجهها عني، وقد بدأ نحيبهايعلو:

- لا بأس. دع لي بعضًا من الكرامة كي أعيش بها باقي عمري، واجعلني أنهي علاقتنا هذه المرة.

نزلت كلماتها كالصاعقة، زلزلتني من أعماقي، وبدا لي أن ابننا لم يُقتل في أحشائها فحسب، بل قُتل معه عشقها وحنينها لي وكل أمل في السعادة.

ثم ضغطتْ على زر استدعاء الممرضة، وأخذت تصرخ.. وكأنها أرادت أن تنهي المقابلة بسوط عذاب:

- آسفة. لن أستطيع العودة، لقد حل محل الحب الذي سكن قلبي المرارة والألم، لن أستطيع أن أخدعك وأقول لك إني أحبك، لن أستطيع نسيان ما حدث.

دخلت الممرضة مهرولة، ثم أعطت لها مهدئًا، وقالت بهدوء:

- من فضلك اتركها الآن. كما ترى.. حالتها لا تسمح بالزيارة.

لم أجد عبارات تحمل المعاني التي عشتها في تلك اللحظة، فكأن بعضًا مني لفظني لأعيش أشلاء إنسان ما بقي لي من عمر، خطوت

بخطوات زاحفة إلى الباب، أخذت أقاوم دموعي التي تجمعت في مقلتي تريد الفرار، وأسأل نفسي: أين المفر؟ هل كتب علي أن أعود إلى تلك الحياة الباردة الجافة وأترك بضعةً مني؟ بل أغلى ما في على تراب هذا البلد!

تركتها.. حائرًا، حزينًا، قادتني قدماي إلى آخر طوق نجاة، إذ وجدت نفسي أمام منزل عائلتها بالدقي.



الفصل الثاني والعشرون

هــي

استيقظت على صوت حسام وهو يتحدث إلى الطبيب الخاص، وعندما فتحت عيني، استأذن الطبيب أخي ليخرج حتى يجري الفحص عليّ، وبعد أن انتهى طمأن أخي وأخبره أن حالتي قد استقرت، ونستطيع مغادرة المستشفى، خرج الطبيب ثم نظر إليَّ حسام قائلًا:

- صباح الخير يا كسلانة، اليوم يوم جديد، يعني أمل جديد، سنغادر المستشفى اليوم أو غدًا.

سقطت دمعة من عيني، فلا أملك ذلك التفاؤل والأمل الذي يفوح من فم أخي، ثم قال أخي بابتسامة:

- سوف أحضر أمي وأوصل حمزة إلى الحضانة ثم أتجه إلى عملي، ألا تريدين أن أحضر لك شيئًا عند عودتي؟

قلت بابتسامة باهتة:

- لو يوجد مُسَكِّن لجرحي، أحضره معك.

وضع أخي ذراعه بحنان حولي قائلًا:



- حبيبتي، الجرح سيزول مع مرور الوقت، من رحمة الله أن كل شيء يولد صغيرًا ويكبر إلا الجرح.. يولد كبيرًا ثم يصغر تدريجيًّا مع مرور الزمن.

ربت على يديه اللتين كانتا تحاوطانني، وتذكرت كلام المايسترو عن قول الله: إن مع العسر يسرًا. حقًّا أخي، بحنانه ما بعده يسر.

هم حسام بالخروج، ثم وقف برهة وكأنه تذكر شيئًا:

- نورا، لقد عرفت من الممرضة أن شريف قام بزيارتك، اندهشت أنك لم تخبريني عن هذه الزيارة.

قلت بحدة:

- لا أريد سماع سيرته مرة أخرى.

قال أخي مستنكرًا:

- نورا ما خطبك؟ أليس هذا شريف حبيب عمرك؟!

قلت، وأنا أحاول بهذه الكلمات أن أنزع سكينه الذي غرسه في صدري:

- كان ذلك في الماضي، ولكن الآن انتهى كل شيء.

- اعذريه يا نورا. نحن لا نعرف ما نقله له ذلك الوغد الذي يدعى إيهاب.



قلت لأخي، وقد بدأت الدموع تنذر بالهطول:

- حسام، كفاك حديثًا في هذا الموضوع، أرجوك.

قال حسام محذرًا:

- إيهاب ليس بسيطًا يا نورا. لقد أخفيت عنك رد فعله عند سماعه خبر رجوعك إلى شريف؛ لأني لم أرد أن أثير قلقك.

تذكرت أخي يوم رجوعه من عند إيهاب.. كان غريبًا، وعلى غير عادته غابت ابتسامته عن وجهه، وعندما سألته عن سبب وجومه، قال إنه يشعر ببعض التعب، ثم أردف قائلًا: إن إيهاب كان متفهمًا للغاية؛ ولأني كنت أريد تصديقه لم أتشكك في كلامه، على الرغم مما بدا عليه من حزن وقلق، ولكن ألم يأن الأوان أن أعرف الحقيقة؟، قلت:

- ما الذي قاله لك؟

- قال لي بعصبية شديدة: لم أخسر صفقة في عمري قط، وعندما تتأزم معي الأمور لابد أن أخسِّر خصمي، لابد أن أطرحه أرضًا، مهما بلغ الثمن!





هـــو

استيقظت من نومي، ودمعت عيناي حين وقعت على وسادتها الخالية، فاليوم يوم رحيلي، كم كنت أتمنى أن نرحل معًا! دار بخلدي ما دار بيني وبين أمها عندما ذهبتُ أستجديها لتتوسط لي عندها، كنت ذاهبًا إلى منزل عائلتها على أمل أن أفوز بآخر طوق نجاة، وكانت وجهتي حسام، ولكن للأسف كان قد غادر المنزل، ولم يكن أمامي إلا أم نورا، وعلى الرغم من علمي بأنها امرأة باردة لا تُحكِّم قلبها إلا قليلًا قررت أن أستنجد بها بدلًا من حسام، على كل حال لقد تحسنت علاقتنا كثيرًا في الآونة الأخيرة، فلعل ذلك يشفع لي.

كان البيت هادئًا، وكان حمزة نائمًا في حجرته، عندما وجدتني واقفًا أمامها بعينين زائغتين، وقلبٍ حزين، أذنت لي بالدخول، دعتني للجلوس في صالة المعيشة، كان وجهها واجمًا، قلت بدموع عيني:

- أدرك أني خذلتك، ولم أصن الأمانة، كنت غبيًّا.

قالت بهدوء، وهي تضع يدها على كتفي:

- من منا معصوم من الخطأ؟! لسنا ملائكة.

أذهلني ردها، فما كنتُ أتوقع أن يكون لتلك السيدة التي ظننت



يومًا أنها جامدة متحجرة؛ قلب رحيم يعذر، قلت وأنا أمسح دمعي:

- لقد قالت لي نورا ذات مرة إن الظن يقتل أحسن ما فينا، كانت على حق. لكن هذه المرة قتل ابننا الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر، وقتل كل أمل في نجاة حمزة! حتى الأمل في رجوعنا.

قالت:

- الأمل لو في الله لا يمكن أن يموت يا شريف، انهض واغسل وجهك، وأنا أعدك أني سأعمل كل ما في وسعي حتى تعود المياه إلى مجاريها.

هكذا وعدتني تلك المرأة الحكيمة، ولكنها لم تتصل بي بعد، مع علمها بموعد سفري، يبدو أنها أخفقت في مساعيها.

نظرت إلى ساعة الحائط، مازال الوقت يسعفني، ستقلع طائرتي في غضون ساعات. ارتديت ملابسي.. وخرجت متجهًا إلى حضانة سوفت روز، وددت أن أملأ عيني من حمزة قبل أن أغادر البلاد، وقد علمت من حسام أن حمزة سيكون بالحضانة اليوم.

وصلت في وقت مناسب، قادتني مدرسته أشجان إلى غرفة الموسيقى؛ حيث كان ولدي مع زملائه يعزف على الآلات الصغيرة التي وفرتها لهم الإدارة، كان حمزة منهمكًا في العزف، ذكرني بوالدته.

وعندما رآني أقترب منه، ترك العزف وجرى نحوي بلهفة أثلجت صدري، ارتمي في أحضاني قائلًا:

- أبي.

كم طرب لها قلبي حين سماعها، ولم تمهلني دموعي، أخذته في حضني أقبله، وقد استكان بين يدي.

قرة عيني، لقد كان لك من القوة على الرغم من براءتك وضعفك أن تعيدنا أنا وأمك بعد سنين من الفراق، ولكن أبى كبرياؤنا وغلظتنا أن نستمر، عذرًا يا ولدي.. لم أكن الأب الذي تستحقه، ولكن يعلم الله أني حاولت جاهدًا أن أعيش معك، أرعاك وأنت تكبر بعيني، أشد أزرك وأساندك في أيام شدائدك. كنت أتمنى أن تشفى لتعيش كالباقين تمرح وتلهو، وعندما تكبر تؤدي دورك الذي كتبه الله لك على أكمل وجه.

هل سنتقابل ثانية؟ أسأل الله أن يمد في عمري وعمرك، ولكن.. هل ستغفر حينها؟ لقد غفرت لي بدمية وأنت صغير، فما عساي أن أقدمه لك حين تكبر كي تعفو وتصفح؟ ليس بيدي شيء.. ليس بيدي شيء يزيل همومك ومعاناتك معي، ترى كيف ستكون.. هل ستكون عازفًا عظيمًا مثل أمك؟ وهل ستعلن أصابع يدك عن معاناتك معي، وكيف صار كلٌّ منا في طريق؟ ربما تحتقرني بل وتلعنني، ولكن لا تقسُ عليّ يا حبيبي، حتى لو بلغت أخطائي عنان السماء.. فسيكفر



عنها حرماني منك وسنوات الوحدة التي تنتظرني في الغربة، أدرك جيدًا أنه ليس فراقنا الأول، ولكن فراقنا اليوم أكثر إيلامًا وقسوة؛ لأني ضممتك إليّ، فطربتُ بندائك وسررت برؤيتك، وأحيتني ابتسامتك، ومتعتني صحبتك، آه يا بني، سأفتقدك إلى حد الموت، ولكن عزائي أن صورتك لن تبرح جفوني، سأغمض عيني كلما ازداد أنيني وحنيني إليك، فربما يخفف ذلك من عذاب الاشتياق.

يا من رقص له قلبي، أرجو ألا تنسى أباك، فلا تنسَ كم أحببتك وكم كرهت الفراق، واحتفظ بقلبك بريئًا نقيًّا؛ حتي لا تلاقي ما لاقيناه. فلا تكن كوالديك، سامح واغفر واعذر، فكلنا خطَّاءون، وكلنا معذبون بأخطائنا.

أخذت أبكي، ولكن صغيري مسح دموعي بيديه، وأسرتني براءته وهو يقول :

- لماذا تبكي يا أبي، هل فقدت لعبتك؟

قلت، وما زال البكاء يصاحب كلماتي:

- أجل يا حبيبي، كانت في يدي وأضعتها، كم أنا حزين لفقدانها.

مد يديه الصغيرتين ماسكًا بدمية صغيرة، وأردف قائلًا:

- لا تحزن. خد هذه القطقوطة والعب بها حينًا، ثم أعدها إلى مُدَرستي أشجان؛ حتى لا تبكي عليها.

قبلت يديه الصغيرتين، ثم جاءت مدرسته أشجان قائلة:

- حصة الغداء ستبدأ الآن، هل سيرحل حمزة معك؟ أم سيذهب معي ليأكل مع الأولاد؟

قلت، وأنا أمسح دموعي:

- بل سينضم إلى الأولاد.

أخذته المُدرسة.. وتقدمت به خطوات، ثم التفت إليَّ، وجرى نحوي بخطوات هزيلة قائلًا:

- أبي، مُرَّ عليَّ، خذني مع خالي حسام.

حضنته مرة أخرى، ثم تركته ليتبع مُدرسته، وكأني انتزعت قلبي من بين ضلوعي، ورميته في مهب الريح.

عدت إلى الفندق، ووضعت آخر مقتنياتي وأمتعتي في حقيبتي، فقد حان موعد الرحيل، آن الأوان للسمك أن يترك مياهه.



الفصل الثالث والعشرون

هـــي

كنت في حجرتي بالمستشفى في انتظار أمي، وقد عقدت العزم على المغادرة؛ مادام قد سمح الطبيب لنا بذلك، فكرت في حالي وأخذت أتأمل ما قاله أخي منذ برهة، فالجراح تولد كبيرة ثم يصغر حجمها وتتلاشى مع الزمن، ولكن.. هل جرح بهذا العمق يمكن أن يزول ولو بعد ألف عام؟

دخلت عليَّ أمي، كنت أشعر بها تحاول أن تشد من أزري بحديثها عن حمزة، فهي تعلم بابتهاجي عند الخوض في سيرته، أخذت تحكي لي عن أحواله، تضحك من كلامه تارة، وتتعجب منه تارة أخرى، فحمزة مثل والده يشع من عينيه الذكاء، وله تعليقات في غاية الغرابة إذا صدرت من هذه السن الصغيرة، ثم قالت وهي تلملم أمتعتنا استعدادًا لمغادرة المستشفى:

- شريف سيرحل. سيغادر إلى الولايات المتحدة اليوم. ستقلع طائرته في تمام الساعة الثانية.

كرهت الخوض في الحديث عنه. في بادئ الأمر كنت أكره أن يستثار جرحي، ولكن الآن أخشى أن يستثار حنيني إليه، لا أريد أن أضعف بعد اليوم. قاطعت أمي قائلة:

- لا أبالي.

قالت أمي بشيء من اللوم:

- يدهشني عدم قدرتك على الغفران يا نورا! على الرغم من أنك أحببته حبًّا عظيمًا!

أجل لقد أحببته، أحببته حبًّا يفوق كل تصور، شريف بداخلي، يسكن في أعماقي، ولكنه طعنني بسكين ما زالت مغروسة بين ضلوعي، فكيف تشك نفسي في نفسي؟! قلت لأمي عسى أن تفهمني:

- ربما لأني أحببته حبًّا عظيمًا.. ترك حبه جرحًا عميقًا، من فضلك لا أريد أن أسمع سيرته.

قالت أمي بحدة:

- وحمزة! ألم تفكري فيه، لِم تحرمينه من أبيه؟

قلت، وقد بدأ الجرح يدمي من جديد:

- لأن أباه لا يستحق أبوته. لقد حرمه من أخيه، وكل فرصة للشفاء.



وضعت أمي يدها عليّ بحنان قائلة:

- الشفاء بيد الله يا ابنتي، ثم إن القسوة ليست من طبعك. أنت لا تنتقمين من شريف فحسب، وإنما تنتقمين من نفسك، ومن حمزة أيضًا.

قلت بدموعي:

- لا أستطيع أن أسامح. أدرك أنك تريدينني أن أعود إلى شريف؛ حتى لا أعيش معك مرة أخرى، وأنا مطلقة. لن تفهميني يا أماه؛ لأنك لم تلاقي في حياتك ما أتجرعه اليوم.

قالت أمي بعين دامعة:

- لم أكن أرغب في أن أحدثك فيما سأخبرك به الآن، لكن آن الأوان كي أبوح لكِ به.

أخذتْ نفسًا عميقًا، ثم استطردت قائلة:

- منذ زمن جرحني أبوكِ جرحًا عظيمًا. هل تتذكرين الخالة شاهندا التي كانت من أعز صديقاتي؟

استحضرت في ذهني تلك السيدة المبهرجة التي كانت تزورنا قديمًا، تدَّعي حبها لنا واهتمامها بنا، ومع ذلك لم يرتح لها قلبي لحظة، فعلى الرغم من صغر سني، كنت ألاحظ تصنعها، وكانت تريبني حركاتها، تذكرت أيضًا انقطاع زيارتها لنا فجأة. قلت:

- أذكرها جيدًا.

- لقد تزوجها أبوكِ عُرفيًّا منذ سنين طويلة.

أبي! الوديع، ذو القلب الحنون. كنت أظن أنه لا يملك أن يجرح ولو بكلمة، أيمكن أن يطعن أقرب الناس إليه بهذه القسوة؟! أي شيطان سكن قلبه النقي؟ كنت أظن أنني وأخي أغلى عنده من مقلتيه. كيف هُنَّا عليه؟ ولِم؟ دوامة من أسئلة سحبتني إلى الأعمق، حتى صاحت أمي بدموعها:

- هل تعلمين كيف تكون حالة من تعلم أن زوجها في أحضان أخرى؟ قلبه يدق لغيرها، يهمس باسمها؟

لأول مرة، أرى أمي بعين عطف وشفقة، فقلت، ودموعي ترثي لحالها:

- أتصور حالتها يا أمي.

قالت بحدة:

- لا يمكن أن تتصوري ذلك، لا أحد لديه القدرة على أن يستوعب النار التي كانت تأكل أحشائي إلا من انكوى بها، أصبحت في حالة من الغضب والخوف والذعر بل حالة من الجنون الشديد، فقد ضيَّع قلبي وكرامتي في لحظة، مَن كان أملي وسندي وكل حياتي، كنت أموت في



اليوم كل ثانية، لم يغفل لي جفن، ولم أقوَ على النهوض، فقدت ثقتي في نفسي.. في أنوثتي.. في شخصي.. في إحساسي. كنت أتعجب أن الشمس مازالت تشرق كل يوم، والأطفال يلعبون ويضحكون في الحدائق، والناس يمشون في الأسواق، اندهشت أن الحياة ما زالت تسير لغيري على الرغم من توقفها عندي.

ضممت أمي بين ذراعي، ولأول مرة أشعر بحنانها، وأقدر تضحياتها.

قالت أمي بصوت محبٍّ:

- لكنَّ أباك عاد إلى نفسه، وعاد إلينا، وعلى الرغم من عمق جرحي.. رضيت بالعودة من أجلك ومن أجل أخيك، ولم يكن في وسعي إلا أن أخفي عنكما هذا الحدث الجلل؛ حتى لا تهتز صورته في أعينكما.

قلت، وأنا أمسح دمعة جرت على خديها:

- كم أنتِ عظيمة يا أمي!.

قاطعتني قائلة:

- لا يا نورا. لم أكن بهذه العظمة؛ لأني عدت إليه دون أن أصفح، كنت أرى في عينيه الندم كل يوم، ومع ذلك لم أستطع أن أغفر له. لكن



بعد أن مات وتركني وحيدة، وترك فراغًا هائلًا في حياتي، تذكرت كل لحظة حلوة مرت بيننا، وتذكرت كم كان طيبًا وعطوفًا، لمت نفسي على عجزي، تمنيت لو كنت أقوى على الصفح. يا حبيبي ياحامد، لو تعرف كم أحببتك! لكن للأسف.. ندمي جاء بعد فوات الأوان!

دق محمول أمي وقتها، وكان أخي يطلب منها أن تمده بمزيد من المال؛ لسد مصاريف نثرية لم تكن في حسبانه لينهي إجراءات الخروج من المستشفى، تركتني أمي، وهي تجفف دمعها لتلحق بأخي.

شعرت وقتها أن الأرض تميد من تحتي. ولأول مرة حنقتُ على أبي، وعقدت بداخلي جلسة محكمة كبرى وضعت فيها ولأول مرة أبي في قفص الاتهام، وحاصرته بأسئلة كثيرة لم يستطع مواجهتها، فأدنته بتهم لا تعد ولا تحصى، ثم تراجعت.. إذ وجدت نفسي أكرر أخطائي، لقد ظلمت أمي طول حياتي؛ لأني حكمت عليها دون أن أرى إلا بعضًا من الحقيقة، فلا أريد أن أظلم أبي اليوم، فمازلت غير ملمة بالأحداث التي جرت من حولي وأنا صغيرة، وحتى لو أدركتها فسيظل دائمًا جزءٌ محجوبًا عني.. ألا وهو القلب الذي لا يطلع عليه إلا الله. نحن دائمًا نتسرع في إصدار أحكامنا على الناس، مع العلم بأننا لا نرى إلا جانبًا واحدًا من الحقيقة حتى مع أقرب الناس. وفي النهاية.. كلنا بشر، لا أحد معصوم ولا أحد يملك من نفسه شيئًا.

تأملت نفسي، وما استطعت أن أبرِّئها من دم ابننا، فقد أطلقت



لغضبي العنان، وعدوت بأقصى سرعة دون أن أبالي بما تحمله أحشائي، أنا أيضًا أُلام، إنها الحقيقة المرعبة. والآن لا عودة للجنين، فهل الأمل باقٍ في شفاء حمزة؟ فلو أن الأمل كان في الأطباء فقد نفد حتمًا بنفاد وسائلهم، أما لو كان الأمل في الله، فلا تنفد ولا تنتهي سبله.

فالحكم لله وحده والجزاء. فمن أكون حتى أصدر حكمًا ينزع ابني من أبيه، ويمنعني من رجلي الوحيد، ويحرم زوجي من أسرته؟! ألأنه أخطأ؟ أليس هو بشرًا، يحب ويغار ويغضب ويخطئ، ثم يتراجع ويندم؟

أخرجت محمولي على عجل، وألقيت نظرة على ساعة شاشته، فوجدتها الثانية وعشر دقائق، حاولت الاتصال بشريف وأنا أترجى ربي أن يمهلني لكي أصل إليه، ولكن - ومع الأسف - بدا لي أني قد تأخرت، إذ كان محموله مغلقًا، أرسلت له رسالة ودموعي تسقط على شاشة محمولي، كتبت فيها:

"لا ترحل"

لا جدوى من الرسالة. فقد حلقت طائرة حبيبي في الجو، ترى ماذاسيكون رد فعله حين يقرأ رسالتي عند وصوله إلى مطار كينيدي؟ وربما لن يقرأها، ففي الأغلب أنه سيغير شريحته، ولن تصل رسالتي أبدًا.

وضعت محمولي جانبًا، وأخذت أبكي. هل مكتوب علينا يا حبيبي الفراق؟ كم نحن أغبياء! فسعادتنا وتعاستنا إلى حد كبير من

صنع أيدينا، فكلنا نحرث.. وما نزرعه نجنيه، فلِمَ نأبى يا حبيبي إلا أن نزرع الشوك دون زهوره!

دخلت عليَّ أمي قائلة:

- حسام ينتظرنا في الاستقبال، لقد أنهى كل إجراءات خروجنا، هيا بنا يا نورا. البسي ثيابك، آن الأوان أن نعود إلى بيتنا.

قلت لأمي بعينين دامعتين:

- أمي، لقد حاولت الاتصال بشريف دون فائدة. يبدو أنه قد سافر. لقد انتهى الأمر يا أمي.

أخذتني أمي في أحضانها، وأخذتُ أبكي بحرقة بين ذراعيها، تحسست شعري برفق، وقالت بحنان دافئ:

- حبيبتي لا تقلقي، سنصل إليه. وسوف نرسل إليه بريدًا إلكترونيًّا، شريف يحبك كثيرًا، وإن شاء الله سوف يعود إليك.

وفجأة سمعت صوت رنة وصول رسالة على محمولي، جذبته على الفور، فوجئتُ برسالة منه تقول:

"لم أرحل بعد، فلن تقلع طائرتي بدونك".

تمت



للتواصل مع الكاتبة

برجاء زيارة موقعها على:

www.salma-hassaballa.com